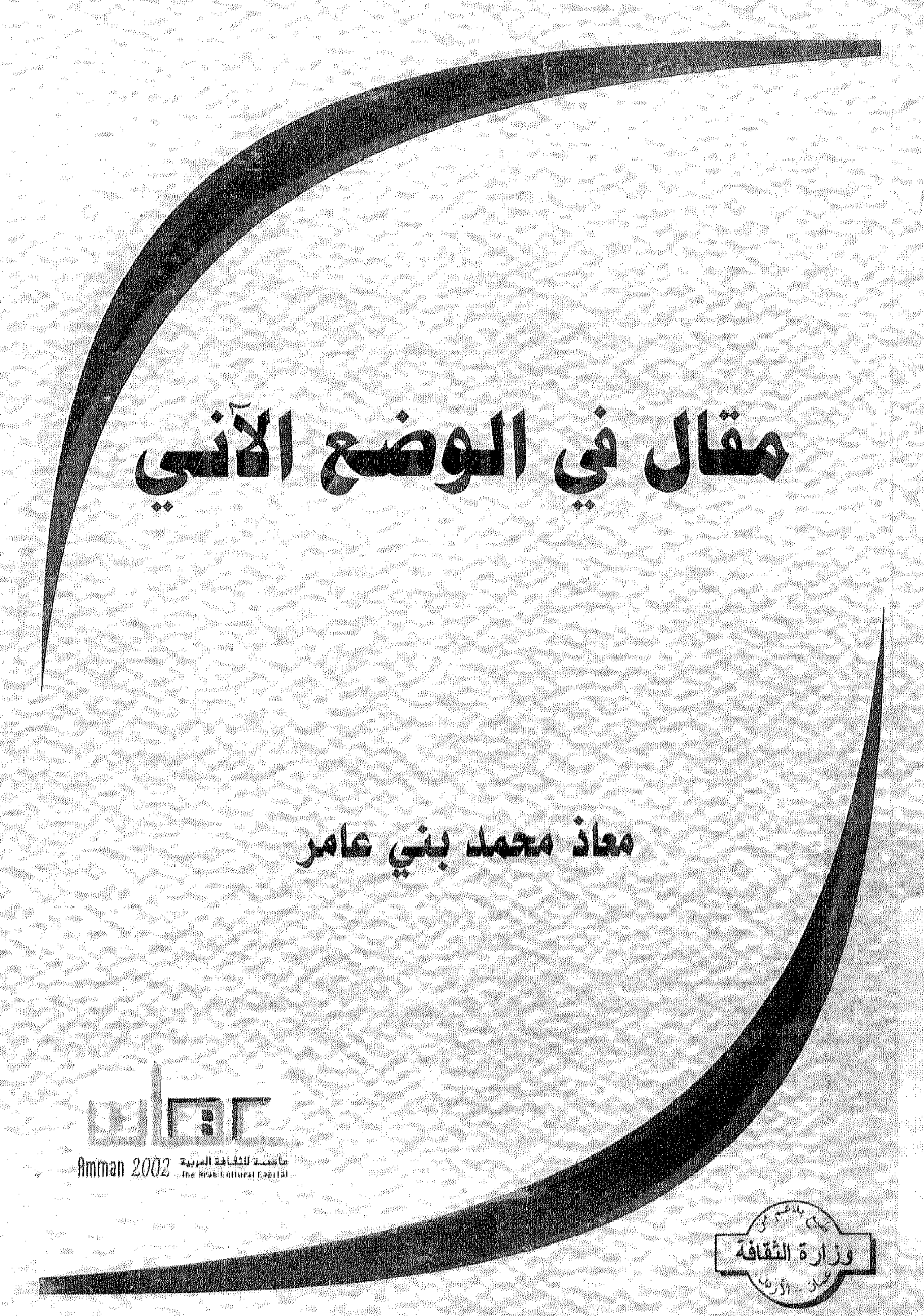


مقال في الوضع الآني
معاذ محمد بني عامر
Amman 2002
وزارة الثقافة

# مقال في الوضع الآني

معاذ محمد بني عامر



رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٢٠٠٢/٨/٢١٥٩

153.4

مقال في الوضع الآني

معاذ محمد بني عامر – عمان : المؤلف ٢٠٠٢

ر. إ : ٢٠٠٢/٨/٢١٥٩

رقم الاجازة لدى دائرة المطبوعات والنشر ٢٠٠٢/٨/٢٠٤٩

الواصفات: / الفلسفة / الإيديولوجيات / التفكير / علم النفس

تم اعداد الفهرسة والتصنيف الاولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة

عن رأي الجهة الداعمة

مطبعة بلال ـ اربد ٧٢٤٨٢٤٩

**الإهـــداء**

في أوقات الذروة، تتأزم الفكرة، وتصاب بحالة هذيان، تدعوها الى الانفلات من الجاذبية الجمجمية.

الى الفكرة التي ثقبت سور الجمجمة، وأحدثت خرقاً معمارياً في الذاكرة.

الى؟ أو ؟

## المقدمة

لم يكن "الوضع الآني" هو شغلي الشاغل، كما الأمر بالنسبة "للوضع التالي"، لكنه لا بد من "الآني" كمادة دسمة "للتالي" تغذي العقل وتزوده بالسعرات الحرارية الفكرية التي تشد ظهره، وتمتن عزيمته، وتمنعه من الاندفاع نحو اللاشيء. هذا بعد أن يصاب "بالشيزوفيرينيا" (الانفصام).

اذن لا بد من "الآني" كمرحلة ممهدة – غير مجزأة– للتعامل لاحقاً مع "التالي" خشية على أنفسنا من الخضوع لهيمنة اللاشيء الفاقد لذاته. ومنعاً من تخبطنا الذي يؤدي الى الانتحار الوجودي "الآني" والذي بالضرورة يؤدي الى انزلاق خطير مع إتيان "التالي".

وحتى ان لم يكن "الآني" في مرحلة ما شغلي الشاغل، إلا انه الآن – ضمن معطيات الآني– يمثل قاعدة صلدة لها تاريخ عتيد، استند عليه في بناء ادراكات واحساسات ووضع تصورات، وبناء لبنات فكرية "للوضع التالي".

نقيضاً لهذا كان من الممكن ان يبنى "الوضع التالي" بمساعدة قوة عفريتية–بين ليلة وضحاها، لو تمتعنا او بالاحرى لو كان لدينا (عتاد سرمدي) نجاري فيه القوة الازلية، فنصنع المعجزات، ونفهم كنه المجهول، ونخترق الزمان، ونلغي المكان، لكننا ونتيجة لضعف كينونتنا الانطولوجية منعنا من امتلاك او حمل (السلاح السرمدي) خشيةان نستعمله في غير موضعه، وخشية ان ينقلب ضدنا ساعة العجز عن التعامل مع تقنياته اللامتناهية.

لكنها الحكمة الإلهية السرمدية، عرفت بضعفنا منذ الازل فحرمت علينا "الوضوح الكامل" أو "الاندماج الكلي" المتمفصل عن العتاد السرمدي الرهيب، ولهذا حكم علينا ان نعيش "الوضع الآني" بكل تفاصيله وفصلاته وانعطافاته، من

آدم– عليه السلام–الى ساعة اعلان– من قبل القوة الإلهية – زحزحـــة اشـــكالية (الزمكان).

حكم علينا بالتقوقع في معاقل "الوضع الآني" خشـــية ان تنتحـــر عقـــولنا، ونجلس بالتالي او بالأحرى نحـــظى بحـــياة متناهية ليس فيها معايشـــة "للوضع التالي".

لم يكن لدينا (عتاد سرمدي)، ولهذا نحن ضعيفون انطولوجياً ولا بـــد لنا من ان نعيش "الآني"، لنروض – بالمعنى العقلاني للكلمة – عقـــولنا، او بالأحـــرى لنؤهلها لتكون جاهزة للمثول امام سرمديات "الوضع التالي".

بلغة اخرى، اقتضت الحكمة الإلهية السرمدية، أن نعلن الفارق بيننا وبينها، عن طريق معايشة "الوضع الآني"،ومكابدة آلامه، وتحمل عثراته، لننتقل بالتالي من خشونة " الوضع الآني" إلى رقي " الوضع التالي"  إذا اردنا اسقـــاط التعبـــير الخلدوني – نسبة الى ابن خلدون – على ما نتحدث عنه ههنا، مع بعض التحفظات الجوهرية.

وبناء على ما تعاقدنا على الاعتقاد بـــه، ألزمتنا الضرورة الانطولوجية أن نتحدث عن "الوضع الآني".

هذا ولم يأت مقال "الوضع الآني" بـــمعناه الميكانيكي، بـــل جاء بـــالمعنى المجازي، لأننا لو تحدثنا عن "الوضع الآني" بالمعنى الميكانيكي ، فسيكون كل ما كتب في هذا الكتاب مجرد شعرة سوداء على جســـم ثور ابـــيض، او العكس. من منطلق امتداد "الوضع الآني" من آدم – عليه الســـلام – الى آخر الزمان " الآني". وبهذا نكون بحاجة إلى أن نعيش عيشة أبدية لنتحـــدث عن " الوضع الآني" بـــكل معطياته

لكننا تحـــدثنا بـــلغة مجازية عن "الوضع الآني" أو بالأحـــرى عن مفصليات "الوضع الآني". لهذا جاءت المقالات التي تشكل المقال، وتنســـج خيوطه، كتمهيد "للوضع التالي". هذا إذا أخضعنا مقـــــال "الوضع الآني" لهيمنة "الوضع التالي" المتمركز في عقل الأنا، فمقال التأمل بشقيه: النفسي (الســيكلوجي) والاجتماعي (السوسيولوجي) بالقطع يعلن انتمائه الى تأمل "الوضع الآني" مدار البحـــث الذي نحوم في فلكه. والذي يشكل – بكل اجزائه – تمهيد "للوضع التالي" حيث تأملاتنا المستقبلية.

نأمل بعد هذا الايجاز، ان يكون ما نقدمه بين يدي (الآخر) فيه احترام لعقـــله، وتقديس لنفسه. هذا بعد النظر اليه من منظور إنساني مثقوب، يتساوى فيه (الأنا) والآخر) من منطلق انجذاب (الأنا) و(الآخر) نحو جاذبية واحـــدة، هي الجاذبـــية الإنسانية، بغض النظر عن المنظور الذي سينظر فيه (الآخر) لما قـــدمه (الأنا). ســـواء كانت نظرة وحـــدوية او انفصالية او عقـــلانية او دينية، او أياً كانت هذه النظرة.

ونأمل – مرة أخرى – أن يكون فيما نقـــدم بـــذره خير تنفع بـــني البشـــر في مسيرتهم الحياتية نحو اللامتناهى.

# تأملات في الحياة من منظور سيكولوجي (نفسي)

"تمضي الحياة بطولها يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، في عملية توافق وتلاؤم بين المتقلب وغير المتقلب من أنفسنا، والدائم وغير الدائم من بيئتنا، فإذا خاب مسعانا بعض الخيبة كنا بلداء، وإذا فحش الإخفاق أحدنا مس من الجنون، وإذا توقفنا عن السعي بعض الوقت علتنا المساب، وإذا ألفينا عتادنا وأقلعنا عن الجهاد بالمرة قضينا نحبنا".

**صموئيل بتلر**

## التأمل رقم "١"

## إشكالية التعايش

### الجزء رقم (١)

الحياة – ليس جوهرها – بل رموزها الميكانيكية، المتمثلة بحيواناتها الناطقة الساذجة، تمارس ضدي حملة ألم شعواء لأسباب جد غير منطقية، لقد كانت هذه الحملة الشعواء "ردة فعل" لأفعال أو بالأحرى لأفكار توالدت من جمجمتي، لم تكن صاحبة حق مشروع، ولم تكن "ردة الفعل" هذه تحصيل حاصل. بل كانت بمثابة اقتحام تعسفي ارتكز على "اللامنطق اللامنطقي".

كنت طيلة فترة هذه الحملة التعسفية – والتي ما زالت تتوالد – أمارس حقي في المقاومة الميكانيكية، والتي كانت تستمد قوتها وجبروتها من جوهر الميكانيكا.

وههنا مكمن الخطور بين (الماضي) وبين (الماضي) –اي الآن– كان وكان تشرذماً من النوع المنفلت من عقاله الذي لا يمكن تشبيهه إلا بقمر صناعي او صرصار يتحرر شيئاً فشيئاً من عبودية الجاذبية الأرضية.

ربما يفهم من كلامي حقية هذا الحملة التي مورست ضدي كونها "ردة فعل" و "ردة الفعل" غالباً ما تأتي لتصحيح الاعوجاج حسبما تعورف على ذلك. لا ليس هذا هو الكائن، انما ما ينبغي أن يكون هو "اللاتسليم" بمسلمة "ردة الفعل" هذه، لكي لا يكون هناك تحكيم لمنطق التفكير الأعوج.

وبعد فإن الحياة اللارمزية بساذجيها، حياة متناهة التعاسة، خاصة عندما تفتقد الى رمز او بالأحرى عندما تفتقد الى رموز متمردة، نكون في موضع حرج ملغم لا يحتمل الا وجود هذه الرموز، لكن وللأسف البالغ السذاجة – المكرر

مرتين – ما زالت هذه الرموز تعاني من "اللارمز".

السؤال المنطقي المفروض للبعض ان يسأله او يتبادر على الأقل الى ذهنه، ما هذا "اللاتجانس".؟

سؤال عميق ينم عن تفسير، تماما كالسؤال المقابل له.

## ما هذا التجانس؟

السؤالان وجهان لمنطق واحد، لكن من الصعب ان نضع الاجابة بين قوسين مقفلين، لأن هذا التجانس "واللاتجانس" يحدث في جو عاصف لكنه محجم عن الامطار، تماما كجلسة "عصف ذهني" لا يتمخض عنها تفكير سليم، او بالاحرى لا يتوالد شيء سليم يمكن ان نسميه تفكير.

عراك فكري مجرثم قائم على التشرذم، او بلغة اكثر دقة، مهاترة فكرية بين المنطق واللامنطق، أساسها "الهو" و"الأنا" الذي عجز في مجموعه – أي الـ "نحن" – عن الوقوف في وجه هذا الشرك الممتد كلعنة الاساطير. عجز "الهو" و "الأنا" عن ايقاف هذا الشرك كان تحصيل حاصل، نتيجة الاستناد الى أسس لا تمت إلا إلى "اللاشيء" الفاقد لذاته. وبالتالي سيكون من الطبيعي ان يتقدم "الأنا" ويتخلف "الهو" ويتشرذم الـ "نحن" مع أن من طبيعتنا عدم تحبيذ هذا التخلخل الذي "قادنا" "يقودنا" "سيقودنا" – أي الآن – نحو البؤس المعلب بالقهر. وهذا البؤس جعل من الطبيعي ان لا تنتظر الينا الحياة بعين العطف، وان نخوض مهاترات دامية من اجل الحياة، لكن من "اللاطبيعي" ان لا تنتظر الينا الحياة بعين العطف.

عكس معكوس، في طرحنا سالف الذكر، كان قد نشا بـــادئ بـــدء من تعدي "الآخر" على موروثات "الأنا" ونتيجة لهذا التعدي كان لا بد للساذجين المهرطقين، من ان يمارسوا حقهم "اللامشروع" المتجسد بـــعاصفة غبـــائية هذائية. مركزها جماجم رديئة، هدفها "النخبة اللانخبة"قبل "الدهماء المدلهمة"، هدفها القـــتل وليس التخدير. فكان هذا الطبيعي واللاطبـــيعي، العكس المعكوس، قـــد وضعنا كفصلة غير مرغوب فيها بين "الحق" و"الباطل" بين "الالحاد" و"الايمان".

ولكن وانطلاقـــاً من طبـــائعنا التي تدعو الى التمرد ضد الضد، فكائنة ما تكون شراسة هذا الضد، جدير بنا ان نقف ببربريتنا – بالمعنى المتحضر للكلمة – شامخين في وجه الريح الحارة، منطلقين من عقلنا اللاشـــعوري، مســـتندين على المنطق، متسلحـــين بـــضمير ذاتنا مدافعينعن ذاتنا، مقـــارعين بـــآرائنا دغمائية السذجاء الناطقين.

## الجزء رقم (٢)

لأن الزمان الذي نعيش فيه ليس زمان الانكسارات الكبرى للعقل البشري، وليس زمان الوقوف باجلال امام عظائم الامور، بقـــدر ما هو زمان تتشــطر فيه الاجساد الى جســيمات مزرية تتعرض لانتهاكات المارة، ولاغتصابـــات رواد المقاهي التي تقدم مشروبات تشرب بأحذية ملوثة بدم الحيض.

ولأن الزمان الذي نعيش فيه على هذه الشـــاكلة، أعني شـــاكلة بحـــيرات نيجيريا القذرة، يصير لزاماً علينا الانخراط بطوباويات الحضارة، وبـــدغمائيات المثقفين، وبصلافات الأعراف الاجتماعية النتنة.

هذا الانخراط يكون أو بالاحرى سيكون – يكون – نتيجة حتمية لأنخلاعك عما كنت عليه.وهكذا بقدر ما تنخلع بقدر ما تنخرط، وبقدر ما تنفلت من عقابـــيل العقل الرجعي بقدر ما تنتقـــل الى ميادين "اللاتوقـــع" و "اللانحســـار" في متون السطور والاوراق الملونة التي إن كنت لا تتقن التعامل معها فأنت مصاب "بعمى الألوان".هذا الزمان هو زمان تعملقـــت فيه اجســـاد الاقـــزام، هو زمن الخيانات العظمى التي تباركها الأيدي القذرة، وزمن شاخت فيه أوراق العقلانيين، وشبـــت قـــصاصات الدغمائيين.هذا هو حـــال الزمان الذي صنعه العقـــل المتناهي الذي ترعرع في اجواء ضبابية كثيفة مشحونة بارساليات تبشيرية. من غسيل للأدمغة وقصف للعقول وتقزيم منظم للأفكار. وايمان عميق "باللامعقول" الناقص عقلياً.

أمراض نفسانية وعقلانية تصيبنا، اذا لم ننخلع لكي ننخرط، تتجســد اكثر "ما تكون" "كانت" "ستكون"–أي الآن– في دغمائنتنا وبربريتنا وارهابيتنا.

أمراض ذهانية وعصابية – حسبما يدعون – تحـدق بـــنا من كل حـــدب

وصوب، ما تلبث ان تفكك نسيجنا النفسى الضاربة جذوره في مدارات "الانغلاق" و "التقوقع" و"الادراكات المغلوطة" والتشظيات الفكرية المبـعثرة".ليس نسـيجاً طوباوياً نسيجنا النفسي، لكنه نسـيج اصابـه الضمور لكثرة ما مورسـت ضده الخلاعات الفكرية والفظاعات الكتابية التي صيغت على قـصاصات من الورق الرديء المصنع في معبد اشباه الثقافات، ومسـوخات العادات المغلوطة، والتي صاغتها شـرذمات من الواقـعين في "فخ شبـه العلم" - بتعبـير نبـيل علي - والمنخدعين بالخطأ التاريخي الوارد في متون الايقونات.انعكاسات وانشطارات متناهية الخطورة تعرض لها النسيج النفسي السـليم الرافض لكل الأيدي القـذرة التي "امتدت" "سـتمتد" -تمتد - نحـو مقـدراته الأصلية، ومعطياته الثقـافية الرهيبة.وكنتيجة حتمية لهذه الضبابـيات التي حـجمت مدى الرؤية عجزنا عن الحب والعطاء. عجزت "أنا" عن تقمص "الهو" وعجز "الهو" عن تقـمص "الأنا"، مما شكل ركوداً تكافلياً، تقزمت على اثره المعطيات البشرية الراقـية "كالحـق" و"الخير" و"الجمال"، وتعملقت معطيات المافيا البشرية-كالبهائمية واللاعقلانية.

ليس عارياً هذا التأمل يتلقى دورة انعاش جسدي في الجحيم، كما انه ليس غرابـاً يحوم فوق الفردوس المنتظر، بـل جزء من العكس هو الصحـيح. لأنه تأمل في النص ذو الحيز الواقعي، على عكس ما قد يتبادر الى الذهن من أنه تأمل في البعد التجريدي.لجلاء الأمور، تأملنا يتعامل مع نص حـياتي مفكك فرضته العادات الاجتماعية والضغوطات الثقـافية، ولا يتعامل مع نص تجريدي صاغته افلاطونية المفكرين او سارترية الوجوديين او نيتشوية الوثنيين.فبقدر ما يتعامل "عما هو عليه الحال" بقدر ما يبتعد"عما ينبغي ان يكون عليه الحـال"، وبقـدر ما أصابه من شطحان، بقدر ما يتماهى ليتقـزم ويتحـجم، لكي لا يكون للناس عليه حجة.

## الجزء رقم "٣"

عاجزون عن الحب، وتائهون في صحارى الجسد، وذلك كنتائج تمفصلت عن مقدمات مغلوطة، كسوء الفهم للأهداف الكبرى لهذه الحياة، والادركات الشعورية المغلوطة.

فالإدركات الشعورية المغلوطة تتماهى في العقول، وتتسامى او بالأخرى اخذت بالتسامي، باختصار ستتسامى – اي الآن – فوق المعقول، لتوصم عقولنا بمعقولية اللامعقول، او بالأحرى – منعاً للخلط– بمشروعية اللامشروع.

مرة اخرى، عاجزون عن الحب، ليس لضعف المثالية في ماهية الحب او لضعف الحب عقلاً وروحاً، بل لعدم تمرسنا على الاضطلاع بعظائم الأمور، ولإشكاليات نسجلها على الأفكار التي "كدسناها" "نكدسها" "سنكدسها" – أي الآن – في عقولنا، فهذه الافكار – على وجه الجملة – وقفت موقف المتخاذل العاجز عن الإلمام بمعقولية المعقول، او مشروعية المشروع.

وهذا التخاذل سيطر على كيمياء المخ فسبب انفلاتاً حقيقياً لموازين الامور، فترك الحبل على الغرب، فاصبح بالتالي هذا الفلتان لا فلتاناً، يقيس الأمور ويقننها ويمنحها ميزات هي في الأصل ليست ميزات، بقدر ما هي انحرافات وتجاوزات.

فالمنفلتون المتمفصلون او بالأحرى المنخلعون عن مدارات "اللاانفلات" والمنطلقون بالتالي الى قوقعة الانفلات، اصبحوا يتماهون في ضلالات من الزيف، وعتمات من الوعي الزائف، لا يلبثوا أن يعمموه على المجموع الاجتماعي ليصير بالتالي سمة ثقافية او عرفاً اجتماعياً يمارس ضغوطاته الاجتماعية على كل من يحاول الانطلاق بسرعة قمر صناعي في محاولة

للانفلات من عقابيل الانفلات، والعودة الى مدارات اللاانفلات.

للمرة الثالثة، عاجزون عن الحب، وذلك لفظاعة الحياة التي تصمنا بزيف المعتقدات، وبحقية الهرطقات والخزعبلات التي تجتاحـــنا من خلفنا وأمامنا وعن يميننا ويسارنا، فما أن تلبث واحدة بالانقراض حـــتى تطل علينا اختها اشـــد منها بأساً، وانتن منها رائحة، واقبح منها قلباً وقالباً.

هذه هي الحياة بمفرداتها الخشنة، اذا لم تقدم نفسك وعقلك قرباناً لمعابـــدها ومسارحها وباراتها، فأنت من المغضوب عليهم، عليك ازر المجوســيين، توصم على جبينك بوصمة عار تحدد معالمها بخنجر مغولي مســموم، وتلفظ الى مملكة الاقزام خشية ان تدوسك اقدام المتعملقين.

من جديد نعيد الكرة ونعود الى التأمل لنوجز فنقول:

اننا تعاملنا مع نص الحياة بصفته فضاء مثقوباً -بتعبير علي حرب- سمح لنا بالتمرد على هيمنات التقنينات، وبالتحرر من المطلقات وعبوديتها، والتعامل بالتالي مع جدلية الحياة بمرارة وقسوة، وخشونة مفرداتية، وقاعدة من المعطيات اللامعقولة، المحمولة على محمل المعقول.

كان هذا هو تأملنا منذ البداية وحتى النهاية، بـــكل ما فيه من اللامعقـــول واللامتوقع، والذي استفاد الى حد كبـــير من المعقـــول والمتوقـــع. وكان بـــكل كارزميته وعدم كارزميته، بـــكل انكســـاراته وانشـــــطاراته، يمثل تماهياً مع اللامعقول وحمله على محمل المعقول.

مختصر القول، طالما هناك عقل للعقول - بـــالمعنى الميكانيكي للجملة - طالما هناك ضد لهذا العقل يرفض ويشجب ويســـتنكر ويتمرد، ســـواء اخذ هذا الشجب والرفض والاستنكار والتمرد بعداً تجريدياً ام حيزاً مكانياً، ســـواء تراكم في خزائن الذاكرة، ام ترجم الى واقع ميكانيكي.

فاذا – عطفاً على ما سبق – كان مختصر القـــول ما ذكر سابقــاً فمختصر ما قبـــل المختصر لسنا نريد العودة بـــمفرداتنا الى عصر البربـــريات، لنعبـــر عن عصر الحداثة. لكننا اردناها مفردات خشنة، ليس من منطلق ديكارتي – أنا خشـــن اذا فأنا موجود –إنما اردنا التعبـــر عن خشـــونة الحـــــياة، بخشـــــونة مفرداتية ومرارة مصطلحاتية.

هذا بالنسبة لمختصر ما قبل المختصر ، اما بالنسبة للمختصر الوارد بـــعد ما قبل المختصر – أي مختصر المختصر فمحمول على التمرد و الانفلات.

## التأمل رقم "٢"

## صراع الانخلاع ـ الانخراط

ان اللذعة التي تعترينا ساعة الانفصال او بالأحرى الانسلاخ هي لذعة الرهبة، والاقتراب والابتعاد، وتقمص سكرات الموت، ساعة المتضادات التي تزلزلنا نتيجة تعريتنا من اقنعتنا التي يجرفها تيار "ما كان"، عليه. مهما كان "ما كان" عليه حتى ولو كان جاهلية او وثنية او كفراً او ايماناً او حباً او .... الخ.

فهذه "اللذعة" عندما تتقمصنا ونتوحد معها، تمنحنا ألماً ممزوجاً بتورد الجاهلية والحضارة معاً على لوحة الزمان المشطوب، ويخامرنا – في ذات الوقت– شعور بالرهبة والعظمة معاً يبقى محفوراً – بناء على ادراكاتنا وتصوراتنا – على لوحة فولاذية مصلوبة على مرايا الذاكرة، ولا سبيل إلى انزياحها أو زحزحتها من قمقم الذاكرة اللعينة حتى نبقى – على الدوام – نحن ان كنا مؤمنين الى كفرنا، وان متحضرين والى بداوتنا، ان عقلانيين الى عاطفتنا، وان كنا ملائكة الى شيطانيتنا – أعني نحن البشر –، ولنبقى ايضاً نحن او بالأحرى نتجرع مطاعيما من الألم الممزوج بلذة "اللذعة" والحنين بالتالي الى الزمن المفقود الذي يعشعش في الذاكرة مذ كنا لا شيء في الحياة السرمدية اللامتناهية.
وبرغم ضعف احتمالية زحزحة "اللذعة" الا ان الاحتماالية واردة فيما يتعلق بتنويم هذه "اللذعة" او تطعيمها بمطعوم الأفيون، حتى يصار بعد ذلك الى تدعيم هذا التنويم بادراكات وإحساسات تنعكس على "الأنا" حتى تغدو موحدة للانخراط و نابذة – في ذات الوقت – لـ "ما كان" من منطلق مواكبة الإنخراط بمعناه الظاهر لتطلعات الأنا وعجز ما كان – بمعناه الظاهر ايضا عن مجاراة حماقات "الأنا" التي اخذت تتداح كما العاصفة نحو نحت انجازاتها على كوكب يلتهب التهاباً، ايذاناً بانتهاء عصر السرمديات وعصر الـ "ما كان"،

والولوج بالتالي الى عصر اللوحة الأبدية، التي تعد بحضارة كوكبية "ينخرط" فيها الكل أو الـــ"نحـــن" – أي "الأنا" والـــ "هو" والـــ "هنا" والـــ "هناك" في محـــاولة لردم هوة "ما كان" التي احدثها ما كانت عليه الشـــعوب والتي أدت بـــدورها إلى الاختلافات والمشاحنات والمطاحنات والحروب بين بني البشر.

إذن زحزحة "اللذعة" غير ممكنة، لأنها قد تكون الحق، وحتى ولو لم تكن حقاً، فمسألة الانخلاع عن الأصل صعبة جداً حتى ولو قبـــع الرفض في ســـجون اللاوعي، فهذا محمد صلى الله عليه وسلم يخبرنا بأنه قد بعث ليتمم مكارم الأخلاق "بعث ليتمم" وهذا عمر بن الخطاب يخبرنا ايضاً فيقول :" من لم يعرف الجاهلية لا يعرف الإسلام" حتى المسلم وان تجرأ وأعلن كفره، فإنه يبقى ولو على المســـتوى التجريدي، أو بالأحرى يبقى هناك عبد داخله يعلن عبوديته لله عن طريق التعبـــد والتوحيد.

وما ينطبق على المسلم ينطبق على غيره، فهذا "يوكيو ميشيما" يقـــول:" لا يقـــتصر دور الماضي على أنه قـــوة تشـــدنا الى الوراء، الى زمن مضى، ففي الماضي ذكريات بعينها، كأن لها زنبركات قوية عندما تمسها أيدينا".

ومن هنا يصعب على المرء ان يتحرر تحـــرراً كلياً عن ماضيه او اصله، فالعبقري عندما يبلغ مبلغاً عظيماً من العلم والمعرفة، يبدأ بالحـــنين على اثر ذلك الى "لاوعيه" حيث التدفق العفوي للمشاعر والأحاسيس والسلوكيات، وكأنه يصل الى ما يرشده بأن ماضيه أو "لاوعيه" هو قمة وعيه، بغض النظر عما قـــد يصف الأخرون ما به من الجنون، والهذيان او الهلوسة، او المرض النفسي والعقـــلي او ... الخ.

وما ينطبق على العبقري، ينطبق على كل شيء "انخلع" في فترة من

الفترات الغابرة عن اصله، فهناك العقلانى الذي يحكم عقله في كل شيء، لا بد له من الحنين الى عاطفته، حتى ولو بلغ مبلغاَ عظيماَ من العقلانية. و هناك المتحضر الذي يحنّ الى بربريته، و هناك الإنسان الذي يحنّ الى حـــيوا نيته، و هناك و هناك و هناك، حتى يوم القيامة يحنّ البعض الى معرفة قصص الماضى التي حدثت فى "الوضع الآني".

فعلى ما يبدو ان فكرة رحـــلة الحـــنين الى الزمن الضائع، فكرة تتشبـــث بعقولنا مهما ادعينا تحررنا من قالبها الذي يغلف ركوعنا وســـجودنا وتنســـكنا، وزندقتنا وبربريتنا، وكل هذه الأشياء التي تلذعنا بـــلذعة الماضي، إذا ما توغلنا فيها، وسبحنا في ملكوتها.

## التأمل رقم "٣"

## التلقين والذاكرة

مخدوعون ان اعتقدنا بالمنطق القائل: بأن الماء لا لون له ولا رائحة ولا طعم، لأن الماء له لون لم يستطع العقل بعد ان يحدد سمات هذا اللون، وله رائحة وطعم، لكن نتيجة لتقدينا بقانون الحاسة الصارم حصل ما حصل.

هذا المنطق المتعلق بمنطق الماء، هو نفسه منطق المؤمنين بقوة الذاكرة، والكافرين بضعف العملية الفكرية، فالاشتغال على جبهة منطق الماء والمنطق المشابه لمنطق الماء، هو اشتغال يعمل على تنشيط الذاكرة، ويدفعها الى مزيد من حفظ المعلومات، لتبقى جبهة الذاكرة في نشاط دائم.

هذا الانخداع جعلنا او بالاحرى جعل العاملين على تنشيط ذاكرتهم، يقبلون -بطريقة مباشرة او غير مباشرة- على الشكل من دون المضمون، استناداً الى اسس العملية التلقينية التي تعمل او تدعو الى حفظ المعلومة دون فهم لهذه المعلومة او بالاحرى دون اخضاعها للتمحيص العقلاني.

بتعبير اخر، العملية التلقينية تطبع في الذاكرة معلومات لتخزينها وتبويبها واسترجاعها وقت الحاجة اليها. لكن العملية التلقينية لا تسعى الى اخضاع هذه المعلومات للتأمل الفكري والعصف الذهني.

اذن العملية التلقينية تسعى الى انتاج افراد ذوي ذاكرة سريعة الحفظ وسريعة الاسترجاع. اي انها تركز على انتاج افراد يهتمون بالجانب المرئي للمعلومة، لكنهم- اي الافراد سالفى الذكر- او بالاحرى لا يعنيهم الجانب

"اللامرئي" للمعلومة او جوهر المرئي، او يصبحوا غير قادرين على فلسفة المعلومة او البحث في كنه هذه المعلومة.

وهذا بدوره يؤدي الى تخبط في المخ البشري. اذ يتم التصعيد من حدة الذاكرة، في نفس الوقت الذي يتم فيه تناسي دور العملية الفكرية التي يمكن ان تبرر للفرد او بالاحرى تضع فلسفة للمعلومة التي يحفظها. بلغة اخرى، العملية التلقينية تنتج فرداً نشطاً ذاكرياً قادراً على حفظ المعلومة، وفي ذات الوقت يكون خاملاً فكرياً، ومن هنا تنشأ حالة الضعف الفكري التأملي لدى الفرد النشط ذاكرياً. اذ يعمد الى طرح اطروحته بناء على معلومة حفظها دون ان يعي او دون ان يكون قادراً على فلسفة اطروحته.

وعلى افتراض- جدلاً- ان من يتمتع بذاكرة نشطة المّ بشكل ومضمون المعلومة، فانه يكون ما يزال يعاني من حالة من حالات الوعي الزائف، اذ يكون قد حفظ المعلومة فعلاً وقد حفظ فلسفتها، او ألمّ بشكلها ومضمونها، لكنه ما يزال غير قادر على اخضاع هذه المعلومة (شكلاً ومضموناً) الى التأمل العقلي، والعصف الذهني، ليتأكد من مدى صلاحيتها او ضعفها ليتم على اثر ذلك قبول هذه المعلومة او رفضها.

وعلاوة على ما ذكر، يمكن للذاكرة - اذا ما تم الاعتماد عليها اعتماداً كلياً - ان تؤدي الى او بالأحرى توقع صاحبها في متاهات التخزين والضعف في تخزين المعلومات. والضعف في استرجاع المعلومات. هذا بالاضافة الى اشكالات الذاكرة القصيرة الأجل، وطويلة الأجل، وقد يصل الأمر الى فقدان

الذاكرة، وحدوث كارثة بالتالي– تلم بذاكرة الفرد– تؤدي بمعلوماته الى الاندثار والانتحار، والتأثير بالتالي على الذاكرة كمعطى من المعطيات المشتركة بين بني البشر.

وفي هذا انتقـــاد جوهري للعملية التلقـــينية، اذ انها لم تعمل على علاج الاشكالية علاجا احترازيا او وقائياً، ولم تعمل على نبذ حالة التخبط بـــين جبــهة الذاكرة، وجبهة العملية الفكرية.

## أمل رقم"٤"

## "الوعي" و "اللاوعي"

## في كتابة الشعر

ان الشعراء يولدون ولديهم القدرة على قول الشعر في اي موضوع، لأن الموضوعات بمجملها تكون منطوية تحت مظلة العملية الفكرية بشقيها: "العليا" و "السفلي" وفي تقسيمنا لهذا العمليات ارتأينا ان نطلق على "العليا" منها اسم "الوعي" وعلى "السفلى" اسم "اللاوعي".

القصيدة بادي ذي بدء سواء كتبت في حالة "الوعى" او "اللاوعي"، فانها تكون موجودة- في الاصل- فى عقل الشاعر اللاشعوري. لكن كيف يمكن لفكرة القصيدة ان تترجم من منطقة " الوعي" او "اللاوعي" الى ارض الواقع؟ او بالاحرى كيف يمكن نقل فكرة القصيدة من "الحالة الشعورية"- الوعي واللاوعي - الى "الحالة الحسية"؟

لاحقا لبادئ ذي بدء يمكن لحدث ما ان يصنع نصا شعريا علويا او سفليا خلا ان هناك اختلافا جوهريا بين الحدث الذي يصنع نصا شعريا علويا، والحدث الذي يصنع نصا شعريا سفليا.

فالحدث الذي يستطيع توليد النص الشعري العالي "الوعي" هو "الحدث الخارجي " الموجود ضن الاطار الخارجي للشاعر، او البيئة المحيطة بالشاعر. لكن ليس لأي حدث ان يولد نصا شعريا بليغا. فهناك- على رأي محمود درويش- حدث يصنع نصا كبيرا، وحدث لا ينتج شيئاً.

فحدث الانتفاضة الفلسطينية- على سبيل المثال- الهب الحس الشـــعري عند الشعراء- بعض الشـــعراء- وجعلهم يصنعون نصوصا شـــعرية ضاجعت عبقريتهم الشعرية فيها آلام الحدث وفظاعاته.

وفي المقابل هناك"حدث داخلي" يصنع عملا شعريا سفليا"اللاوعي". فهذا "الحدث الداخلي" يكون بمثابـــة ضغوطات عنيفة تمارس شـــرعيتها على عقـــل الشاعر، فتدفعه الى تقـــنين هذه الضغوطات ولجم مخاضاتها عن طريق توليدها واخراجها من رحم الشاعر الى بيت الشعر.

وهذا "الحدث الداخلي" يكون حكراً على الشاعر نفســـه، فلا يســـتطيع ان يعيش اجوائه ويحيا ضبابيته ويتقمص ضغوطاته الا الشـــاعر الذي تعرض لهذا الحدث الجسيم، وليس لأحد – اي كان- ان يتقمص نفسية هذا الحـــدث. لأنه نفس خاص بالشاعر – اعني الشـــاعر الذي يلد قـــصيدة من رحـــمه – لأن قـــصيدة "اللاوعي" قصيدة خاصة جداً جوهرها ترجمة لسيكولوجيات الشاعر، بـــصفتها عاكسة لمجمل خبرات الشاعر الباطنية. على عكس قصدية "الوعي" التي تعتبـــر في جوهرها ترجمة لسوسيولوجيات الشاعر، لأنها تعكس مجمل خبرات الشاعر الظاهرية بعد اخضاعها لعبقريته الشعرية.

وحقيقة ان العمل الفكري العالي او بالأحرى "الوعي" بحـــاجة الى إعمال ذهني و فكري، وبحاجة الى جلسات "عصف ذهني" للحدث الذي اثر في الشاعر، ليمعن النظر في هذا الموقف المؤثر، بحيث يتمكن من غربـــلة افكاره في منظومة "الوعي" وما يتمخض عن هذه الغربلة من افكار يتم صياغتها على شكل قـــصيدة تجرد موقفاً عنيفاً.

بـــينما العمل الفكري الســـفلي "اللاوعي" ليس بحـــاجة الى إعمال ذهني

وعصف للأفكار لأنه يتحدث عن العواطف والوجدانيات وآلام وزفرات الحب التي تتمركز في قلب الشاعر أو بالأحرى في منطقة "اللاوعي" (العقل العاطفي للشاعر). فالشاعر ودون وعي منه يمسك قلمه ويبدأ بكتابة قصيدة عاطفية يعبر فيها عما يتقد ويتأجج في عقله العاطفي الباطني. بعد ان يكون قد تقمص نفسية الحدث الذي مارس ضغوطاته عليه وجعله في حالة من "اللاوعي".

**الدفقة الشعورية العاطفية**

من غير الممكن لأي كان ان يفلت من عقابيل الماضي او من الحنين الى الزمن الضائع، اي الى لا وعيه، على اعتبار أن "اللاوعي" هو القاعدة التي يستند عليها البناء اي الوعي – في بلورة ذاته الى محسوسات.

وهذا الحنين الى الأساس الضاربة جذوره في قماقم "اللاوعي" يبدأ بممارسة ضغوطاته على الشاعر في لحظات تفكك وعي الانسان أو بالأحرى في لحظات تتشظى فيها الأنا الواعية لتبدأ مرحلة أخرى بالهيمنة على الشاعر، هي مرحلة الأنا اللاوعية.

والأنا اللاوعية هي مرحلة تبدأ بافراز دفقات الشاعر العاطفية على الورق، دون ان يكون هناك اجهاد تجريدي يستنزف سعرات الشاعر الفكرية، ودون ان يكون هناك جبهة يعمل عليها الشاعر، خلا جبهة عواطفه المستشعرة، اقول المستشعرة لجلاء الأمور.

وهكذا يتضح لنا بأن التدفق الشعوري مركزه العقل العاطفي او بالأحرى الانا اللاواعية، والتي تعمل بصورة ميكانيكية للضغط على مشاعر ووجدانيات الشاعر لنقلها بالتالي الى واقع حسي، أي ترجمتها على الورق، وهذه الترجمات تنساب

من انا الشاعر، نتيجة للحظات من الشــوق الدائم الى معالم الأنا الأولية التي لا يحتاج فيها الشاعر الى إعمال ذهني او الى عرض نرجسيته الفكرية، سوى أنه يحتاج الى جلسة تفرضها مشاعره وعواطفه ووجدانياته الملحة، والتي تسـعى -على الدوام- الى تجسيد معالمها الدفنية وبلورة ذاتها.

وليس معنى هذا أن قصيدة "اللاوعي" قـصيدة لا واعية - بـالمعنى الضيق للعبارة- فقصيدة "اللاوعي" بقدر ما هي لا واعية - بالمعنى المتحضر - بقدر ما هي واعية تمثل حساً صادقاً نقياً غير متلاعب بسـجيته، على اعتبـار ان التدفق العاطفي ينطلق من منطقـة صافية غير ملوثة، وعلى اعتبـار - ايضاً- ان الفضاءات النفسية والأجواء الوجدانية الداخلية هي البـوصلة الموجهة لقـصدية "اللاوعي" ولا اعتبار فيها - في الوقـت ذاته - للفضاءات الاجتماعية والأجواء الثقافية الخارجية. ومن هنا وإذا اعتبرنا قـصيدة "اللاوعي" حـالة من حـالات الفوران النفسي للشاعر، وحركة مد عاطفي، فإنها تشكل بالتالي معلماً بـارزاً من معالم التعبـير عن جزء من اجزاء العقـل البشـري، اي ان قـصيدة "اللاوعي" استطاعت ان تشتغل على جبهة صعبة المراس، وتمكنت اثناء اشتغالها على هذه الجبهة من الالمام بجزء من جزئيات العقل البشري التي تكون موشحـة بوشـاح "الوعي" لفترة طويلة.

بلغة اخرى، قصيدة "اللاوعي" تمثل مرحـلة هامة جداً في فهم كنه النفسـية البشرية وتحديد معالمها. فـ "اللاوعي" بصفته المغذي لنوع من القصائد يعتبـر بمثابة العصور البدائية او السحيقة المجهولة التي اكتشف جزءاً من معالمها وليس كل معالمها.

وفي محاولة من "اللاوعي" في إفهام "الآخر" كنه معالمه، يعمل على إ

إخصاب بنات افكاره لتولد بالتالي قصيدة تفهم "الآخر" ولو نزرا قـليلاً من معالم اللاوعي، ومثال ذلك قصيدة بعنوان "ليلى" للشاعر "محمد ابو صبـح" جاء فيها:

تزوجت ليلى

ووحدي تركتني

حملت حقائب السفر

حقائب كثيرة

حقائب كثيرة

مليئة بالخطايا

مليئة بالخيانة ... لحبي

فهذه القصيدة كشفت عن مجهول – بصفتها متمخضة عن منطقة اللاوعي– يتمثل في ان الحقـائب يمكن ان تحـمل في متنها خطايا وخيانة تعصف بنفسـية الشاعر وتزلزل او بالأحرى تشظي وعيه وتدفعه الى تحميل الحقائب بـالخطايا والخيانات بدلاً من الامتعة وغيرها.

وعلى هذا يكون "اللاوعي" بمثابة مرحلة مجهولة غير مكتشفة المعالم، تعبر عن نفسها بما تمنحه للشاعر من جلسـة خرافية على اطلالها، يبـكي وينتحـب ويتجرد من اقنعته وتتزاحم اقدام الافكار الى مخيلة من حيث لا يدري، ويبدأ على اثرها بافراز شطحـاته وهلوسـاته ومعالم عالمة الآخر، ليظهرها للعالم ويتطلع عليها الآخرون، على شكل قصيدة ولا أجمل من شاعريتها، وحـالتها النفسـية، وضبابيتها الموشحة بوشاح أبيض مقدس.

## الدفقة الشعورية العقلية

الوحدة الشعورية العقلية او المخ المفكر مركز او وعاء يحوي مجمل خبرات الشاعر في هذه الحياة، لهذا تعتبر هذه المنطقة مرتعاً خصباً لأفكار الشاعر المتزاحمة التي لا تلبث ان تنطلق من قمقمها الى فضاء مثقوب، يساهم في ابداع سمة ثقافية جديدة تشكل لبنة من لبنات المشهد الثقافي، فالمخ المفكر لشاعر من الشعراء مسؤول عن ضخ أفكاره او بالأحرى مسؤول – بصفته جزءاً من عقل الشاعر – عن بلورة أفكار الشاعر على المستوى التجريدي أولاً ثم المحسوس ثانياً ليكون المولود الجديد سالماً من الناحية الجينية لأن أي تلاعب بالمستوى الأول يعمل على احداث فظاعات – جسدية ونفسية وعقلية – بالمستوى الثاني.

وهذا التبلور لأفكار الشاعر او بالأحرى لقصيدته على المستوى التجريدي والحسي، بحاجة الى ضغط ميكانيكي يمارسه الشاعر على افكاره التي تعاني من الفوضى العارمة، ليعمل بالتالي على ترتيبها وتبويبها على الشاكلة التي يرتئيها. وربما هذا الضغط الميكانيكي هو ما جعل "فولتير" يقول: – في اعقاب اعتبار رجال الدين الفرنسيين زلزال لشبونه عام ١٧٥٥ عقاباً لأهل المدينة على خطاياهم وذنوبهم–.

أنا جزء من الكل الكبير

نعم، لقد حكم على جميع الحيوانات بالحياة

لقد ولدت جميع المخلوقات بمقتضى القانون ذاته

وهي تتألم مثل ومثلي تموت

يشد الصقر على فريسته الوجلة

ويطعن بمنسره الدامي اطرافها المرتعشة

ويبدو كل شيء على ما يرام في عينيه لفترة

ويمزق النسر الصقر الى قطع شر تمزيق

ويرشق الانسان النسر بنباله ويقتله

ويسقط الانسان في غبار معارك الحروب

ويختلط دمه بدماء القتلى مع رفاقه

ويصبح بدوره طعاماً للطيور الكاسرة ....

ان القصيدة في هذا المضمار – مضمار الوعي – تجسد موقفاً عقلانياً باطنياً انفعل – لكن بوعي – مع الحدث الخارجي، – أياً كان هذا الموقف (سياسي، اجتماعي، فلسفي، ... الخ) وراح يصيغه برمزيته الشعرية ليعبر عن حالة من الانفجار الداخلي – نتيجة التفاعل الوجداني الواعي مع الحدث الخارجي – الذي لا بد له من الانتقال من قوقعته المتمركزة في المخ المفكر الى مداراته المتحررة التي يعايشها كل من يعينه أمر صناعة المشهد الثقافي.

بلغة اخرى، فكرة القصيدة الواعية او المتوالدة من المخ المفكر، موجودة في الاصل تعيش في حالة فوضى، لكنها بحاجة الى مثير – الحدث الخارجي ههنا – لنقلها من حالة عدم الاستقرار الى حالة الاستقرار، لتعالج بالتالي، قضية من القضايا أياً كانت هذه القضية (اجتماعية، سياسية، فلسفية... الخ).

وبهذا تكون قصدية الوعي – المتمفصلة عن الوحدة الشعورية العقلية – قد تمخضت عن وعي كامل – لكنه نسبي – ساهم في هذا الوعي ثقافة الشاعر الواسعة وحسه المرهف وشعوره النامي بحجم الالم الذي يضاجع الموقف الذي يعمل على تجسيده في قصيدته.

وغالباً ما تكون حالات الوعي سبباً في ولادة قصائد سالمة جينياً وبيئياً، ويتأمل منها زيادة وعي "الآخر" وزيادة تثقيفه، وتعريفه بالجوانب المظلمة لعصر التنوير، ليصار - بعد نمو الوعي الاجتماعي - الى تحرير "الأنا" من اخطبوط "الآخر" والعمل بالتالي على تغيير "الآن" واستبدالها بـ"الآن" السليمة المتزنة.

## الفصل الثاني

# تأملات في الحياة من منظور سوسيولوجي (اجتماعي)

"لا بكون للحياة من قيمة، الا اذا كان لها عاية"

**هيجل**

مقال في الوضع الآتي

## التأمل رقم "١"

## تربية الآباء قبل الأبناء

قد يبدو القارئ مشدوهاً للوهلة الأولى، فيقــول لنا: ما هذا "اللامنطق"؟ لكن وما أن يتمكن من سبر أغوار هذا الكلام، حتى يتلاشى هذا "اللامنطق" ويتبدد من مخيلته، ليعود من جديد، فيقول لنا ما هذا المنطق السليم؟

فالعلاقة في جوهرها بين الآباء والأبناء تبــادل منظم لنفس الدور في مدار النسق الاجتماعي، فالأب في طور من أطوار حياته يكون أبناً والابــن هو الآخر سيكون أباً في طور من أطوار حياته "الآنية"، لكنها لاحقة.

ومكمن الخطورة في هذا الطرح وتأثيره سلبــاً على مســـيرة النســـق الاجتماعي، ونشوء خلل فيه هو عدم كفاءة الآباء في القــيام بــأدوارهم كمربـــي أجيال، أجيال غير خجولة ومستكينة، وواثقة من نفســـها ومن دورها الأجتماعي، وقادرة –ايضاً – على التحدي والصمود للفوز بهذا التحدي.

وعدم كفاءة الآباء تنشأ بادئ ذي بدء من تقهقر الآباء أنفسهم، وعدم قدرتهم على صياغة شخصياتهم، بطريقة تمكنهم من انتاج جيل جديد قــادر على تحــمل اعباء الأمة، ومن هنا نصل الى أن تربية الأبناء مسؤولية الآبــاء، والعكس ليس بالعكس أي أن الآباء ليسوا مسؤولية الأبناء، فاذا تعاملنا بــهذا المنطق، فتربــية الآباء – موضوعنا هاهنا– مسوؤلية من؟

إن مسؤولية تربية الآباء هي مسؤولية الآباء أنفسهم، فالأب قبل ان ينتقل الى هذا الطور – أي في الطور الذي كان فيه ابناً – يقع على عاتق أبيه تربيته تربــية سليمة غير متلاعب بنقائها، تتحد فيها متطلبات الجســد والنفس والعقــل ليكن تعليمه فيما بعد منسجماً مع التوجه التربوي السليم.

وهذا التوجه التربوي في تشكيل النفس والجسد والعقل تشكيلاً مستقيماً، يجعل من جيل الأباء جيلاً مهذب السلوك، انعكست نفسيته السليمة ايجابياً على سلوكه الاجتماعي، فاصبح عنصراً نشطاً قادراً على تحريك العجلة التنموية للأمة نحو الأمام من خلال مشاركته الفاعلة في تربية ابناءه تربية سديدة، بحيث يصبح الأبناء مورداً بشرياً يساهم بفاعلية متناهية العنف في العملية التنموية التي لا يكتب لها النجاح بدون المورد البشري، ومسؤولية الآباء في تربية الآباء -نفسياً وجسدياً وعقلياً - مسؤولية خطيرة وحساسة.

(خطيرة) فيما قد يتمفصل عنها من انعكاسات سلبية على الآباء، من هشاشة في ترويض - بالمعنى العقلاني للكلمة-النفس والعقل وترجمة هذه الهشاشة الى واقع قد يخلق مناخا استبدادياً، فمثلاً، ممارسة الاب العمليات الفكرية بالنيابة عن الآباء وهم في طور الابناء ، يجعل من هؤلاء الآبـــاء مجرد آلات ميكانيكية تعمل بالريموت كنترول، وتصبح بالتالي غير قـــادرة على الاعتداد بـــالنفس، والتفكير بنمطق عقلاني.وابسط الصور التي يمارس فيها الآباء التفكير عن الآبـــاء - أي ابناء الأن. أعني "الآن" بـــالمعنى الضيق - تتمثل فى اختيار الزي والاصدقـــاء، واحياناً تتدخل العناية الأبوية الدكتاتورية في اختيار شريكة الحياة.

ألِلى هذا الحد وصلت الممارسات الأبوية الموسولينية؟ نعم، بل الى اكثر من هذا الحـــد، ففي كثير من الاحـــيان خصوصاً في المجتمع الريفي يعمد الأب الى وضع خطة تعسفية-بدون وعي عقلاني-يحـــدد بموجبـــها مستقبـــل ابـــنه-أب المستقبـــل، ضمن معطيات الآن-الى ان يذهب الى مقبـــرة التاريخ من تدخل في اختيار نوع الدراسة وبالتالى الوظيفة، والزوجة وبناء البـــيت، وانجاب الاطفال ربـــــــما يكون الأب ينجب اناثاً لكن الاب الهتلري يريد ذكوراً -هذه معضلة.

اذن، لا بد من اعلان الزواج من امرأة اخرى.

لقد اصبحت العناية الأبوية التعسفية تتدخل في كل شيء الى درجة بـناء امبراطوريات أبوية محاطة بقوة تعسكر بالقرب من تصرفات الأبناء، وتحـكمهم - أي الآباء - "بقبضة من حديد مغطاة بقفاز من حرير".

و(حساسة) - ما زلنا نعني تربية الآبـاء فيما قـد ينتج عنها -ايضاً- من انعكاسات سلبـية، لكن في هذه المرة على "المجموع الكلي للأمة"، فتصبـح غير قـادرة - اي الأمة - على تكوين كل متكامل، وتتعرض بـالتالي الى التمزق والتبعثر والاختراقات بكافة أنواعها، واشـكالها، مما يؤدي أو بالأحـرى يجعل الأمة تركض بجنون خلف شؤونها الصغيرة التي ترهقها وتبعثر قواها، وتجعلها غير قادرة على الانخراط في الاعمال العظيمة التي تخلد الامم، وتمنحـها هوية تميزها عن باقي الأمم.

لقد تردت الصياغات الابوية للآباء، ولقـد تصاعدت مصادرة الحقـوق وعلى راسها الحق في التفكير، تحـت مسـميات فهمت بطريقـة مغلوطة أمثال "العاطفة الدينية" و"الحق المشروع في الهيمنة الأبـوية". فمن هذا ما نشـاهده من الآباء في اسباغ هالة من القداسة حول انفسهم وتصرفاتهم، يبـاركها الابـناء - طوعاً او كرهاً - اي الآباء - بموجب "صكوك العاطفة الدينية" التي يفسرها الأب بما ينسجم مع مصالحه اولاً وثانياً وثالثاً ورابـعاً والى ما لا نهاية، فعلى سبـيل المثال نجد الأب يكره ابنته على اختيار شريك حياتها مفسراً الأمر بوجوب طاعة الأبن - ذكراً أو انثى - للأب لأنه أعلم بالمصلحة الدينية والاجتماعية.

يحملون هرطقاتهم على محمل الدين، ليجدوا مبرراً قـوياً يسـاعدهم في فرض منطقهم يفسرون باسـم الدين، والدين بـراء من هرطقـاتهم ونظراتهم

التعسفية المزوجة بالغباء بأمور الدين وأمر الاجتماع.

وعلى الرغم من كل هذا إلا أن تربية الآباء قبل الأبناء، ليست عملاً فوق طبيعي أو علماً سحرياً، لا يتقنه إلا الفلاسفة والمشعوذين، بل هو على العكس من ذلك، حيث إنه عمل طبيعي يجب أن يتقنه الكل للمحافظة على الأسرة والمجتمع من الضياع والشرود الآخذ في الامتداد هذه الأيام نتيجة لضعف الاساليب التربوية في تربية الآباء، وعدم جديتها وجدواها. وهذه الاساليب التربوية الضعيفة والمتردية لم تأت هكذا بالصدفة او وصمتنا بها القوة العفريتية. بل إنها تراكمت في العقلية الأبوية عبر تاريخها القصير – والتي تعتبر في جوهرها امتداد للعقلية الابوية السالفة – الى درجة اصبحت معها هذه الممارسات شبه تقليد يلتزم بها كل من يحاول اجترار الحياة، وحقاً هذه هي الطامة الكبرى، فالآباء يعيشون "الآن" (الحاضر) والابناء سيعشون "غداً" (المستقبل) – كل هذا ضمن معطيات الوضع الآني – فالآباء الذي يصوغون ابناءهم – آباء المستقبل – بصيغة (الماضي) و(الحاضر)، ويتجاهلون – بوعي او بدون وعي – صيغة (المستقبل) هم آباء يسيرون في دائرة مغلقة لانعدام منطقيتهم وواقعيتهم.

وهذا التشرذم بين (الحاضر) و(المستقبل) هو الذي ينشئ حالة اغتراب بين "الآن" و"الغد"، يدفع ثمنه الفرد والمجتمع والامة.

ومسؤولية التوليف بين (الحاضر) و(المستقبل) بين "الآن" و"الغد" مسؤولية الجيل الأبوي الواعي المثقف والمنفتح على الحياة بدافع وضابط.

مسؤولية الجيل الأبوي الذي ينهل من (الماضي)، ويستفيد من (الحاضر) في تكوين قاعدة راسخة يستند عليها من اجل (المستقبل).

## التأمل رقم"٢"

## النساء وفخ الرجولة

على وجه الجملة، تمارس الرجولة ربوبيتها المقدسة على الجنس الانثوي، ليس من منطلق منطقي، بل من منطلق تعسفي مريض يعاني من ثقب في قزحيته عمل ويعمل على تخلخل في موازيين النظام الانثوي على المستويين المرئي واللامرئي.

فالرجولة تعود بشكلياتها- وفي كثير من الاحيان بمضامينها- الى العصور البربرية، لتجسد ذاتها بطرق غير مقدسة، معلنة في الوقت ذاته انها الانسب و الاصلح للوصاية على عرش مملكة النساء. ومن منطلق الانسب والاصلح المغلوط بدأت اقطاب الحياة- اعني الرجل و المرأة- بالتنافر و التضاد والتشرذم، فقامت حملات شعواء- يترأسها الجنس الذكوري- تطالب بحقوق المرأة التي يشوبها الحذر.

المشكلة تكمن في اقتناع الجنس الانثوي باكاذيب الرجال واخطائهم، وابقائهم- اي الجنس الانثوي- على هذه الاوضاع، وعدم سعيهم الى نسف هذه الاخطاء والاكاذيب بل يعملون على تقديس هذه الاغلوطات واسباغ هالة من الجلالية عليها، حتى غدت المرأة- مع بدايات القرن الحادي والعشرين- اكثر انقيادا للرجل من ذي قبل، على الرغم من كثرة المؤتمرات النسوية، والمهرجانات و اندية عرض الازياء والاجساد والافلام الهوليوودية، وغيرها الكثير التي توحي "قالبا" بانعتاق المرأة من معتقلات الرجل، على عكس "قلبها" الموحي بعودة المرأة الى عصورها الغابرة، وحنينها الى قوقعة الرجولة.

رغم هذا الا انه ليس ثمة مشكلة في ايمان المرأة بمنطقية الرجل المتمرس

على احترام مقدسات المرأة والمضطلع بدور بطولي في حمل المرأة على حصانة الابيض واخراجها من قمقم العصر المظلم الى عصر المرأة الذهبي، لكن ثمة مشكلة- في المقابل نوجس منها خيفة- ساعة إيمان المرأة باشباه الرجال وبشكلياتهم التي تسعى الى تهجين المرأة وترويضها وتقنين شكلها الخارجي عن طريق رسم جغرافيا جسدها، والتعدي على معالمها الانثوية واكثر مايتمثل هذا التعدي في انماط اللباس النسوية التي يصنعها الرجال في معامل باريس وايطاليا واسرائيل في محاولة لانتزاع هالة القداسة عن الانثى والسعي الدؤوب الى عولمة جسدها ومصادرة هويتها.

هذا التعدي الذكوري يباركه الجنس الانثوي، ان لم يكن شكلاً فمضموناً، او العكس بالعكس، خوفاً على مصالحه مع قطب الحياة الاخر، وخشية ان يتهم بالرجعية والبربرية.

لذلك تعمد المرأة في كثير من الاحيان الى لبس لباس مخالف لمعتقدها وارثها الفكري والتراثي والاجتماعي من اجل التماشي مع الوضع السائد المنخلع عن ذاته فلا ا همية للانخلاع بقدر ما هناك اهمية للانخراط، لا اهمية للمبدأ او المعتقد طالما أن الكل يتمرد على هذا المبدأ الذي لم يعد له مكان أمام جهابذة البشرية من المنظرين في المؤتمرات النسوية، والمشرفين على مهرجانات التعري، والقائمين على حراسة افكار العالم الفذّ "سيغموند فرويد".

مقدمات رجولية خاطئة تمخض عنها بالضرورة نتائج انثوية خاطئة، ابتداء من حملات تدجين العقل الأنثوي على الشاكلة التي يرتئيها الرجال، والانتقال بالتالي الى تدجين سلوكها، على اعتبار ان السلوك ابناً شرعياً للفكر.

ونتيجة لهذه الاغاليط كان لا بد للمرأة من الوقــوع في مصائد الرجال، والاعتراف بقدرتهم على ابتكار الوسائل والادوات من اجل اذلالها واستعمارها، الى درجة اصبحت فيها النساء وكأنهن"مازوخيات" يتلذذن بالظلم الواقع عليهم من طغاة الرجال. واعتبار هذا الظلم نوعاً من التحضر والتمدن والتقــدم الخروج من القمقم المسدود بسدادة المبادئ والعادات والتقاليد، فأصبح سير المرأة نحــو الفخ الرجولي، نيشان تتفاخر به النساء دلالة على الانفتاح الحضاري، وعدم الانغلاق داخل حدود الموروث المبتذل البالي.

## التأمل رقم"٣"

## المرأة بين الانخلاع والانخراط

دعونا نتفق– بادئ ذي بدء– على ان المرأة رجولة الانثى والانثى طفولة المرأة، وذلك منعاً للخلط بين المرأة كمحسوس والانثى كمتعال او بالاحرى كمجرد خشية ان نقع في "اللامنطق" وثأراً للامنطقيتنا نحمله– اي اللامنطق– على محمل المنطق لنصير من لامنطقيتنا منطقا لا منطقيا، تمخض عن مقدمات اولية تعانى من الفصام، ومنعاً للوقوع في هذه الخشية اشفعنا الطفولة بالرجولة وعطفنا الرجولة على الطفولة، ليكون لما ندلي به منطقيته وحسه السليم.

بداية تتشكل معالم الانخراط النسوي– مع التحفظ النسبي على اللفظة– السليم في مجتمع من المجتمعات عندما يكون هذا المجتمع نظيفاً بصرا وبصيرة، او بالاحرى عندما يكون طاهراً– ليس قذراً– فكرياً وسلوكياً كالمجتمع الاسلامي ابان العصر المحمدي الذي شرّع فيه قانوناً إلهياً لحماية المرأة من السلوكيات الوحشية التي مورست– مع نزع الاعتبارية الزمانية– ضد المرأة في المجتمعات البشرية قاطبة من اول الزمان الى آخر الزمان، كشكر "افلاطون" للرب على خلقه رجلاً وليس امرأة، والوأد الجاهلي للنساء، والجهود القائمة الآن الى عولمة جسد المرأة– بحسب تعبير يوسف القرضاوي– وفكرها.

وبعد التشريع الرباني– ابان العصر المحمدي– للنص– الضامن للمرأة حقوقها – جاء التطبيق المحمدي للنص الرباني وتحويله الى سلوك احترم المرأة، وعيّشها في جو اسطوري، عجزت عنه مثالية "افلاطون" وشاعرية "نزار" ورومنسيات العشاق في روايات الحب والغرام.

كان هذا هو اساس الانخراط حيث الطهارة والامان، اوبالاحـــرى يصير الانخراط قاعدة في المجتمعات الطاهرة العذراء، يصبح الانخلاع بالتالي شذوذاً مرفوضاً نصاً وسلوكاً لكن الصورة ذاتها ينقلب منطقـــها فى المجتمعات الضالة التي تتزعمها وتقوم على حراستها"كلاب قذرة". فالمرأة– في مثل هذه المجتمعات – مدعوة باستمرار الى ذبح منطقها، وطعنه بخنجر مســموم، فتجدها محـــاطة بالعناية البشرية المتألهة ساعة خروجها على النص وكسرها للســلوك الســليم، وترعرعها في اجواء ضبابية غير ظاهرة المعالم لتبقـــى على الدوام في دياجير الظلام، تعاني من انعدام الضوء نتيجة التعدي على المصادر الاساســــــية التي تمدها– فسيولوجيا وســـيكولوجياً وسوســـيولوجياً– بـــالعزة والكبـــرياء وقـــوة الشخصية، والنفاذ الخارق في هذه الحياة.

ومن منطق المنطق المقولب تبدأ المرأة في المجتمعات الضالة بالانخلاع عن ارثها البيولوجي والســيكولوجي، لتبـــدأ مرحـــلة جديدة– فرضتها الكلاب القـــذرة– الانخراط في المجموع الاجتماعى هو الحـــــل الوحـــــيد، لتكون من دعاة"تحرر المرأة" على المستوى الجسدي، لتشكل بالتالى–نتيجة لهذا الانخراط– ازمة نفسانية ترهق المرأة وتحدث بلبـــلة نفســـية تضغط عل مناطق"اللاوعى" او "الشـــعور الدفين" الذي يرفض مثل هذا الانخراط البربـــــري. ونتيجة للضغط المتبادل بين "المجتمع القذر" و "مملكة المشـــاعر"، ينخرق ضمير المرأة وتصاب بثقب اجتماعى جسيم، فتحاول تجسير الهوة الضميرية لكنها تفشل فشـــلاً ذريعاً، فتسارع بـــالتالي الى ردم هوة الثقـــب الاجتماعي، فتعمل على تحقـــيق رفاهيتها الاجتماعية عن طريق تعريض جسدها للقيل والقال، والتنظير لهذا الجسد ومدحه والثناء عليه من قبل رجال الصحافة ومصممي الازياء النسوية، والرجال

المضطلعين بدور خطير في اشراك المرأة- كمضيفة او حاملة اوراق او مقدمةزهور- في الاعمال الرجولية الهزيلة.

باختصار، المرأة في المجتمعات المنخلعة تعاني من تخبط في منظومتها النفسية والاجتماعية، فالرجحان النفسي يسبب للمرأة نبذاً اجتماعياً عنيفاً، لأن الرجحان النفسي يعني العودة الى المنطق السليم، وهذا ما ترفضه المجتمعات القذرة التي تستهوي العمل على جبهة"اللامنطق"، لذلك تعمل على نشر ضغوطاتها الاجتماعية التي تسبب انتباذا مجتمعياً للمرأة المنطقية السليمة نفسياً.

اما الرجحان الاجتماعي فيؤدي الى ضغط الافكار المنطقية في "العقل اللاشعوري" على ممارسات المرأة "اللامنطقية" مشكلة بالتالي (التأنيب الضميري) للمرأة، خصوصاً بعد ان تكون هذه الضغوطات قد بلغت مداها وبدأت بالتململ كالمارد من فانوسها السحري.

القضية – اعني قضية الانخلاع والانخراط – تضطلع بدور متأله، يشرع قوانينه لانتهاك قداسة المرأة، خرق وشاحها الطاهر، وسيؤول هذا القانون المنخلع – الذي تحرسه الكلاب القذرة – الى تسجيل بطولات فاشلة لا تخرج منها المرأة الا بصليل السيوف الخشبية التي يصنعها الرجال خصيصاً لهذه المهاترات البطولية.

## التأمل رقم "٤"

## ارتداء عباءة الدين

انها لعنة النرجسية التي تلبست بين البشر على امتداد الزمان، في محاولة منهم لاعلان وجودهم داخل النسق الاجتماعي بـــمعناه الضيق والعريض، وعلى حســاب من ، انه على حســـاب"الآخر". ولكن كيف السبـــيل الى اعلان الوجود الاجتماعي؟.

لا بـــد من كارزمية ما تضغط على "الآخر" ليصدق- طوعاً او كرهاً- او بالاحرى ليعلن وجودي او ليثبت نرجسيتي ولو تلمقاً او رياءً.

لا بد من عباءة حجازية اتستر بها على شيطانيتى، عباءة داكنة اخفي بـــها رقع جلابيبي، واخاديد جسدي، لأظهر بمظهر لائق امام"الدهماء"، ليبقـــى الجميع على احترامي وتقديري وتعظيمي بل وتأليهى. فانا- اي الأنا- لا اقبل بـــأن اكون باقل من إله اطرد الروح الشريرةا للعينة، فأعمد الى تبكيت اجساد النساء"بالابر"، لأنها التعويذة الانسب- من نظر المرتدين لعباءة الدين- لتطيهر المرأة المذنبة من الروح الشريرةالشيطانية التي تلبست جسدها، وبدأت بالتالي باحـــداث تأثير على سلوكها الاجتماعي.

انها ممارسات السلطة الدينية المغلوطة التي يمثلها الاغبياء من المتدينين، او قل: المدّعون بقوة منطقهم الديني، والذين يندفعون من منطلق غبائهم الديني الى اعلان حراستهم لمصالح الرب على الأرض، او المفوضون من قبـــل الله لرعاية المصالح – على حدّ تعبير لويس الرابع عشر – البشرية على الأرض، في سبـــيل تقويم السلوك، والارتقاء بالفكر. فهذا محرّم، وهذا محلل ليس لأن الدين يحلل هذا، ويحرم ذلك، بل لأنني – أعني الأنا – ومن منطلق تألهي الاجتماعي اريد ان اثبتَ

وجودي ، عن طريق اثباتي لقوة دينيتي وتفهمي لمضامينها اكثر من ذاك- اعني الآخر- لهذا اشرع في التحـــليل والتحـــريم من منظور ذاتي ، وليس من منظور ديني بحت.

ومن هذا المنطلق، يشرع الكثيرون- اذا ما شعروا بنقــص ما- الى التدثر بعباءة الدين لتقيهم برد الشتاء، وحرّ الصيف، ولتحميهم من عقدة النقص الديني والاجتماعي، في محــاولة- في الوقــت ذاته- الى نفض الغبـــار عن الســلوك الاجتماعي العفن الذي ابتعد عن"رحم الدين".

هكذا يعتقــدون، واي اعتقـــاد يعتقــدون؟ المرأة عورة، وتعلمها عورة، تمردها على العقــلية الرجولية العفنة عورة، تفاهمها مع زوجها عورة، واقـــامة مؤسسة وحدوية بين الزوج وزوجته عورة.

وكذلك الحــرية عورة، فحقــوق الزوجة عورة، وحقــوق الاولاد عورة استقلالية الابن عن الاب عورة.

كل شيء – من منظور المتدثرين تدثراً مصطنعاً بعبـــاءة الدين – عورة عورة حرام

، والحـــرام عار في الدنيا، وخزي في الاخرة كل شـــي من وجهة نظرهم عورة الا ما لا يعتبرونه عورة فليس مهماً ان اقهر زوجتي، واغتصب حقوقـــها، وأعلن مجزرة على جسدها، لأني أصلي، اية صلاة هذه؟

لاشك انها صلاة عفاريت!

ليس مهماً – ايضاً- ان اصادر حرية البنت والولد، لأن الطاعة واجبـــة، هكذا ذكرني "سماحة الشـــيخ..." عندما كان على المنبـــر يرينا اســـنانه العفنة، ويعرض لقـــوة دينيته المغلوطة، ليس مهماً ان اتهم "طه حســـين" – على سبـــيل

المثال – بالجاسوسية الفكرية للغرب، لأن شيخي في تقويم سلوكي – الذي بلغ مبلغاً عظيماً من العلم من وجهة نظر الأنا – أخبرني بأن طه حسين" عورة. أنا لم أقرأ لطه حسين، لكنه قال، ماذا قال؟ قال ان طه حسين عورة اتقن الجاسوسية الفكرية. لماذا قال؟ هكذا اخبروه. أليس هذا تملقاً وتفيهقاً في اقماع الحديث، كما اخبرنا بذلك سيدنا محمد ناقل هذه الأمة – أعني الأمة البشرية – من دياجير الظلام الى قناديل النور.

أليس هذا عفن فكري في عقول المتملقين او المخفين لنازيتهم تحت عباءة الدين.

انها القرصنة الاجتماعية التي تتدثر بغطاء الدين. هي قرصنة، وهم قراصنة، هي وهم تخبط في العفونة التي مضى عليها امداً بعيداً وهي تقبع فى جوف النسق الاجتماعي المريض.

إنه المرض جعل منا مصدقين لما بين ايدينا من الأغاليط والزندقات الاجتماعية والتي اصبحت اعرافاً ونظماً اجتماعية بعد ان ختمت بخاتم الدين. إنه ليس ختم الدين بقدر ما هو ختم قراصنة الدين، او الناقصين دينياً واجتماعياً.

انهم "كلاب الحراسة" التي جندت نفسها بطريقة دغمائية لحراسة ابواب الحصون الدينية،من منطلق ايمانهم "اللامحدود" وكشفهم لاسرار الدين عن طريق الكرامات والصلوات الصوفية، هذا بعد ان حرّفوا المذهب الصوفي، لضعفهم الإيماني، ولتمسكهم بتلابيب الماضي التليد الذي تعجز "الدهماء" عن مجاراته، وفك لبابه، على اعتبار انهم – اي قراصنة الدين –سيوف الله المسلولة – هكذا . يعتقدون – لاقامة الحد الاجتماعي وتقويمه الذي بعد عن الدين – من منظورهم الشخصي – ويريدون ان يقوّموه – ايضاً من منظورهم الشخصي – ويعدّلوه

ويعتقلوه، ليكونوا كحصان طروادة الذي ينقلنا من "المدنس" الى "المقدس".

إنها تعويذة قراصنة الدين المخفين لفاشيتهم الاجتماعية والدينية في سبيل درهم او دينار او اعلان "الأنا" من منطلق ميكافيللي.

واذا لم نعلن قدسية هذه "التعويذة" – لأنها آتية من قبل الرب بحسب منطقهم – فنحن زنادقة في الكفر والفسوق والفجور والعصيان.

غضب في الدنيا يحل بنا ويصيب وارثينا، وخزي في الاخرة مركزة الجحيم، حيث زنادقة الكفر امثال "ابو لهب" وهتلر"و "هولاكو" و"ريتشارد: قلب الاسد".

إما ان نعلن الولاء للتعويذة او نتهم بالجاسوسية الفكرية او الاجتماعية، او نتهم ببعدنا عن الدين، ولهاثنا وراء الكفر والالحاد.

هكذا يرتأي "انصاف المتعلمين" او قل" – إن شئت– الذين أعلن العلم براءته من هؤلاء الموشحون بوشاح القذارة الفكرية والسلوكية هكذا يرتأي قراصنة الدين، وهكذا يعتقدون!.

واي اعقاد يعتقدون؟ لا اعلم، سوى انه اعتقاد المنخلعين عن الدين، او بالأحرى اعتقاد حفنة من المتشرذمين الذين عشعش الغبن والغباء في عقولهم الحديدية.

## التأمل رقم "٥"

## بين الخطاب الثقافي والسلوك الاجتماعي

تجيء الثقافة فى مرحلة من مراحل العمر – المرحلة الحرجة الممتدة على طول الوضع الآني – لترتقي بالفرد فكراً وسلوكاً، ولتنقــله من عصور الانغلاق والبهائمية البربرية الى عصور الانضباط والعقلانية المتحضرة.

وتجيء – مرة اخرى – لتعدل او تقوم او تبقى او تنسف فكرة من الفكر او سلوكاً من السلوكيات، أيا كانت هذه الفكرة او هذا السلوك فالفرد ينفرد بالثقافة لأنه "خليفة الله" في أرض الله، وبحـــــــــاجة الى معينات تعينه على إعمار الارض، وتقويمها لصالح بني البشر وينفرد ايضا بالثقافة، لأن معطيات الإنسان – كالفكر مثلاً – ترفض ان تبقى مطبوعة بطبائع العصور البــدائية، او بالأحـــرى يتمرد الإنسان على عالم الحيوانات بفضل ثقافته الواسعة التى تمده بالغذاء الفكري الذي يميزه عن الحيوانات وبهائميتها، في التعامل مع الاشياء، فالإنسان يشترك – على سبيل المثال – مع الحيوان بشيء اســمه "الغرائز" لكن الحــيوان يتعامل مع هذه "الغرائز" بمنطق بهائمي، اذا جاز التعبير، بيد ان الإنسان – ونتيجة لاكتسابه ثقافة واسعة – يعمل على التعامل مع هذه "الغرائز" بمنطق عقلاني متحــضر، كتعامله مع "الغريزة الجنسية" أو "غريزة الجوع" أو ..... الخ.

لكن وللأسف – لكنه طبيعي – فإن بني البشر يتفاوتون في اكتسابهم لهذه الثقافة، فمنهم من يبقى على حنينه، للبربرية الحيوانية، وذلك نتيجة لضعف "ثقافته المكتسبة"، ومنهم من يبدأ بالحنين الى العهد الملائكي النزيه، نتيجة لتمرس الثقافة او لتفشيها – بالمعنى المجازي للكلمة – في عقله ونفســه، ولنأخذ مثالاً عل ذلك، وليكن "الغريزة الجنسية".

فالافراد الأقل ثقافة يعمدون الى حيوانيتهم عندما يبدأون التعامل مع هذه "الغريزة"، فمن منطلق منطقهم البربري، لا حرج في ان تمارس هذه "الغريزة" في الازقة والشوارع المظلمة، وعلب الليل"، حيث الكلاب تنبح وتشهق، وتتعدى الى ارتكاب مجزرة رجولية حيوانية على جسد المرأة، حيث قرقعة السيوف المغولية الممزوجة بالرائحة القذرة لمخلفات الشعوب النائية.
لا بد ان يحدث هذا الخراب وهذا القحط لأن الفكر خرب نتيجة لبراءة الثقافة منه، ومن اجوائه الدنسة الهمجية، لكن الشأن مختلف لدى الانسان المثقف الذي بلغ مبلغاً لا بأس به من الثقافة، فهو يسعى الى تقنين هذه "الغريزة: وضبطها، والتعامل معها بتعقل، اذ يعمد الى ممارسة سلوكه الجنسي بعيداً عن البربرية، عن طريق حفظ الذات التي ترتبط برباط مقدس بالمؤسسة الزوجية التي تجمعُ بين الرجل والمرأة ضمن معطيات عقلانية خيرة، لتكوين مؤسسة سليمة تساهم في ضبط السلوك الاجتماعي.

المنطق يصبح معكوساً ساعة تعري الانسان من رداء الثقافة، فهو بالضرورة يسلك سلوكاً حيوانياً، من منطلق عدم التفريق بين الانسان والحيوان، الا بالعملية الفكرية التي تغذيها الثقافة، وتزودها بالسعرات الحرارية الفكرية التي تعمل على صقل السلوك وتقنينه، ضمن منطق بشري جميل يساعد على تقويم السلوك الاجتماعي ككل، والذي يؤدي بدوره الى صلاح المجتمع، وبعثه للحياة من جديد، بعد ان كان ممسكاً ومتمسكاً بتلابيب البربرية الحيوانية.

اذن وبناء على ما سبق نصل الى منطق يقول: بالضرورة تساهم الثقافة في تحسين السلوك الاجتماعي، وتوظيبه التوظيب الأمثل من اجل تحقيق نقلة نوعية تعلن فيها البشرية انفصالها او بالاحرى تحررها من ربقة العصر المطحون،

وانضمامها بالتالي الى العقلانية البشرية، بمعناها المتحضر. بتعبير اخر، تلعب الثقافة دوراً متناهي العنف في نقل السلوك الاجتماعي من "عفن" البـــهائمية الى "بنسلين" الحضارة.

## التأمل رقم "٦"

## معقولية اللامعقول

### الجزء الأول: هدم البناء

ان هذه الطقوسية الرهيبة التي تفرضها الثقافة الاقوى على الثقافة الاقل شأناً، تشكل معتقلاً مظلماً يتمركز في جوف معبد خالٍ من القناديل والشموع وأعياد الميلاد، وفي الوقت ذاته تفوح منه رائحة الخزي والعار واللامعقول.

لكن الحاصل هو تحميل هذا الخزي والعار على محمل الحب والجمال والرقي، مثلما يحمل اللامعقول على محمل المعقول. ليصير الخزي والعار حباً وجمالاً، واللامعقول معقولاً. يورّد الى شعوب العالم الأقل حظاً، ولا مناص من قبوله. طوعاً وكرهاً– لاسباب سياسية او اقتصادية او عسكرية .... الخ.

ان هذا الفوران اللامعقول – المحمول في الوقت ذاته على محمل المعقول – المتمثل بالاختراقات الثقافية، استحدث من اجل – بعيداً عن كل الاسباب الأخرى – (أدلجة) العقل العالمي بالايدلوجية الاقوى – الرأسمالية ههنا– في محاولة للهجوم على اطلاله الباقية له من اجل تعميرها او بالاحرى تدجينها ضمن ما ترتأيه عساكر (الأدلجة).

بتعبير اخر، حملات الاختراقات الثقافية تسعى الى تهجين عقل "الآخر" ليكون صالحاً لتطعيمه بافكار الايدلويجية الرأسمالية من اجل إحكام السيطرة عليه–اي على عقل "الآخر" ليكون امتداداً لعقل "الأنا" او بالأحرى يصير عقل "الآخر" فرعاً تمفصل عن عقل "الأنا" يعلن على اثره عقل "الآخر" فروض الطاعة لعقل "الأنا" ولا يجوز له في الوقت ذاته – اي لعقل الآخر – ان يتخذ قراراً سيادياً– كامتلاك اسلحة نووية – دون موافقة عقل "الأنا" من منطلق الضعف الجيني في خلايا

الفرع – اي عقل الآخر – المستنسخ عن "الاصل" – اي عقل الأنا – السليم جينياً.

وعلى اثر هذا دمغ عقل "الآخر"، بدمغة رديئة جعلته يبتعد عن المعقـــول، ويرفضه، وبشغف يطلب اللامعقول ويلهث خلفه لهاثاً مهلكاً، كابتعاده عن الحـــق والمنطق العقلاني، والاهداف الكبرى لهذه الحياة، وسعيه الدؤوب نحو الارهابية والانفتاح الجنسي وتذكير الاناث وتأنيث الذكور، وتقليد " الأنا" واجترار مضامينه المخزية بالتالي.

فعقل "الآخر" يسعى الى صقل ذاته على شاكلة عقل "الأنا" بغض النظر عن شرعية منطقـــه او دغمائيته، لأن عقـــل "الأنا" اخترق عقـــل "الآخر" واستبـــاح محارمه، وتركه يعيش في حالة من الضبابية السوداء. صار على اثرها بحـــاجة الى نور "الأنا" وقـــناديله. خوفاً على نفســــه من كلاب الليل الضالة، بـــيد ان الاختراقات الثقافية يرفضها الحس الانساني الســليم ويقــذف بـــها خارج نصه، لاستنادها على اسس غير معقـــولة واعتمادها على ادوات ووســـائل محـــرمة – كغسيل المخ والحرب النفسية وقصف العقل – في تحقيق غايتها، الا ان الحاصل – في عصر العولمة – هو ايجاد تبريرات لهذه الاسس اللامعقولة. لجعلها معقولة يستسيغها العقل والمنطق, ولا تعود مرفوضة من قبل "الآخر"كتبـــرير الاختراق الثقافي لثقافة من الثقافات بأصوليتها –أي الثقـــافة المخترقـــة–ورجعيتها، وعدم تمكنها من الوقوف على قـــدميها في ظل العولمة والانفتاح الاقـــتصادي والتدفق الحر للمعلومات. ولهذا لا بـــد من اعلان وصاية الثقـــافة "أ" – أي الأنا– الثقـــافة الأقوى والأرقى على الثقافة "ب" – أي الآخر" الأقل شأناً. لتعمل الثقافة "أ" بالتالي على نقل الثقافة "ب" من ثقافة اصولية ورجعية الى ثقافة "متحضرنة" قـــادرة على الاعتماد على نفسها في ظل مفاهيم كالعولمة وغزو الفضاء.

وكنتيجة لهذه الاختراقـــات المبـــررة، تردت الصياغات الثقـــــافية (المأدلجة) لأنفصالها - بادئ ذي بدء- عن كينونتها، وابـــتعادها عن محـــورها الذي كانت تتمركز حوله وقت نشأتها. فحصل ان تردى المشهد الثقافي، واصبح على درجة من الوهن والضعف، الى درجة اصبـــح معها يرحـــب بــــــالانضمام الى ركب المتعولمين، ليس لأنه يريد أن ينفتح على العالم من منطلق قـــوي، ليســـــتفيد من نتاجات الثقافات الأخرى، بل لأنه - أي المشهد الثقافي - مجروح، ويحـــاول أن يعالج الجرح بجرح آخر، فبدل ان يعتمد على نفسه في صناعة ثقافية جديدة، فإنه يسعى إلى الثقافات الاخرى ونتاجاتها من اجل معالجة نزيفه الثقافي.

وهذه هي الطامة الكبرى وقمة اللامعقول، اذ يتم اقناع شعب من الشعوب بأن ثقافته قادرة على صياغة مشهدها الثقافي، وهي في الأصل تستمد مشـــهدها الثقافي من ثقافة اخرى، أعتقد انها -هذه الأخيرة- الثقـــافة الطاغية على المشـــهد الثقافي العالمي، والأرقى في ذات الوقت.

ومن هذا الاعتقاد تتمفصل قيم ثقافية جديدة تخترق الثقافة الأم ترعاها-اي ترعى القيم الجديدة- وتحرسها عناية المطبّعون سياسياً بعد ان تم تطبيعهم ثقافياً. فهؤلاء المطبعين يعملون على تحميل هذا اللامعقول على محـــمل المعقـــول. اي يحملون القيم الثقافية الجديدة على محـــمل الانتاج الثقـــافي الجديد الذي ابـــدعته عبقرية الثقافة الأم، وتحمل ايضاً على محمل الرقي والتقـــدم والانفتاح ومواكبـــة التطور العالمي.

لكنهم اي المطبعون ايدلوجياً بالاحرى يرفضون الاعتراف بتحـــميل هذه القيم علي محمل الانصياع والانخلاع والتشرذم والانفصام واجهاض الثقافة الام، وغيرها من المصطلحات التي تنذر بخطر بربري، واقتحام تعسفي للثقافة الأم.

**الجزء الثاني: الهدم من اجل البناء**

ليست- على الدوام- نظرة تشاؤمية، نظرتنا الى اللامعقول، من منطلق ان اللامعقول- خصوصاً في عصر العولمة- معقولا، والمعقول ليس معقولا. وهذا الاخير هو المعقــول الصحـــيح لأنه صالح وفرعه صالح. لكن المتلاعبـــين او بالاحرى المشتغلين على جبهة التحريف عملوا على زحزحـــة هذه الاشـــكالية، وتحويلها الى منطق سليم يتمخض عنه مفاهيم جديدة تعترف بمعقولية اللامعقول، وترفض- في الوقت ذاته- لا معقولية المعقول. وتصبح هذه المفاهيم قانونا ملزماً لكل العقليةالبشرية، علىوجه الجملة.

وكل من يحاول الطعن بهذه المفاهيم، فهو اصولي ورجعي متمسك بعقلية بربـــرية يبقـــر بـــطنه وتلفظ مكنوناته الى بحـــيرات التماســـيح، وتفرض عليه الحصارات، وتحاك ضده المؤامرات ليبقى خارج النص الحـــضاري، ينظر اليه بعين الازدراء والاحتقار.

انها المؤامرة الدنيئة التي حاكتها"الايدي القـــذرة"- من منظور معقـــول- والايدي الطاهرة النقية، من منظور غير المعقول- ليبقى النص الثقـــافي "للأنا"- بالمعنى المعطى هنا- نصا هامشيا مبتوراً، تتقاذفه مياه البحيرات القـــذرة التي لا يعيش فيها شيء سوى الجراثيم والحشرات والنصوص الهامشية التي تنتج اشباه مثقفين، وانصاف متعلمين، وبالتالي انتاج مشهد ثقافي بقدر ما هو"تراجيدي" بقدر ما هو مزر ومسل وقبيح.

انها الأيدي المخربـــة التي تحرســـــها ذئاب الظلام التي آمنت بالقـــــوة الرصاصية للكلمات، ومن منطلق ايمانها اخذت برشق ثقافة "الآخر" بقوتها وبقوة فكرتها، واقناعه – أي الآخر- بمدى تطور هذه الفكرة –رغم دغمائيتها- وتقدمها

وموا كبتها للتدفق العلمي والمعرفي.

انها النرجسية الثقافية التي تسعى الى تأليه ذاتها، لتعلن بالتالي باقي الثقافات ترببب هذه النرجسية. ليبقى هناك- على الدوام- اسياد وعبيد، مطبعين ومطبعين ليبقى هناك "ساديون"و "مازوخيون". ساديون يتلذذون بايقاع البهتان على"الآخر". ومازوخيون يتلذذون بوقوع هذا البهتان عليهم. ليس لأن طبائعهم تحب او تحبذ هذا البهتان. بل لأنهم طبعوا على هذا التلذذ الى درجة تحبيذه، والعمل على تطبيقه.

وهذا بحد ذاته خرق للمعقول المنطقي، وتصعيد للامعقول الدغمائي الذي يروض النفوس، ويدجّن العقول، ويستبيح منطقه المعقول، ويفتح على جبهتها مجزرة فكرية (تؤدلج) العقل بفكرة واحدة، هي فكرة الانخلاع عن المعقول، والاندماج بالتالي مع اللامعقول.

لهذا كان القائمون على نشر فكرة اللامعقول، يعملون على تحقيق غايتهم بوسائل ميكانيكية. لكنهم انتبهوا الى حدوث خلل في "استراتيجيتهم" نتيجة لضعف "تكتيكهم " الميكانيكي. فعمدوا الى الوسائل النفسية والفكرية التي تسعى الى تطويع الفكر وتهذيب – بالمعنى البربري للكلمة – النفس، للتوصل الى تقنين السلوك – حسبما خطط القائمون على ذلك – واستعمار النفس في محاولة لمنع حدوث أي خلل أو ضعف في الاستراتيجية الدغمائية اللامعقولة التي تسعى دوماً الى لفظ عوادمها الايدلوجية والسلوكية، ونتاجاتها الثقافية الى شعوب العالم النائي المعدم الذي يعيش في البقاع الخربة التي تعاني من انكماش دائم في مواردها وكوادرها، نتيجة لضعفها الحضاري، وانخلاع نصها الثقافي المتمفصل عن فكرته، ونسيانها لحاجاتها النفسية والروحية، وسعيها نحو او بالاحرى تطلعها نحو"تقليد" حضارة "الآخر"الاكثر رقياً وتطوراً وانفتاحاً.

**الجزء الثالث: انتحار المشهد الثقافي**

إنها الغاية التي جندت من اجلها كل الوسائل المحللة والمحرمة من منطلق "ميكافيللي" الغاية تبرر الوسيلة، في سبيل احداث اضطراب نفسي سوداوي، يدفع المشهد الثقافي الى الانتحار، قد يكون انتحاراً ايجابياً على طريقة "دوركايم" في الانتحار، او ربما يكون انتحار في سبيل المحبة، والمحافظة على الثقافة الأكثر رقياً وطغياناً.

هذا ويحدث تشويش في العقل المفكر للأمة عندما تقتحمه الثقافات الدخيلة عن طريق حملات الغزو الثقافي او عن طريق البعثات التعليمية، فالأولى – أي الغزو الثقافي– تستهدف النخبة المفكرة او العقل المفكر للأمة، قبل استهدافها للدهماء. لان استهداف النخبة المفكرة يعني استهداف القوى الثقافية والسياسيةو الاقتصادية وكل من يساهم في صناعة المشهد الثقافي.

ويعني استهداف النخب– ايضاً– استهداف العقل الكلي للأمة، بصفتهم قادة رأي لهم تأثيرهم وكارزميتهم على افراد المجتمع. لهذا يعتبر استهدافهم استهدافاً للكل، اما الثانية– اعني البعثات التعليمية– فتستهدف النخب التي تم تطبيعها بثقافة ما غير الثقافة الأم. فهذه النخب تشكل مادة دسمة– بالنسبة للآخر – اذا ما تم التأثير عليها لأنها ستعمل على نشر ثقافة "الآخر". اذا ما عادت الى موطنها وهي محملة بالقيم الثقافية الدخيلة بالنسبة للثقافة الأم.

وهنا يحدث موقفاً سوداوياً بالنسبة للمشهد الثقافي، اذا تعمد هذه النخب الى وضع حلول لمشاكل الثقافة الأم بناءً على خبراتها السابقة التي تعلمتها من ثقافة "الآخر" وفي هذا خلخلة للمشهد الثقافي اذ يصبح هناك انفصام بين"ماضيه" وبين "غده" "فماضيه" من ذاته و"غده" من ذات غيره. اذ ان من يضع "غداً للأنا" يكون

جاهلاً "بماضي الأنا". فمحاولة وضع حلول مستقبلية- على سبيل المثال- للوضع الثقافى العربى- من قبل النخب خريجة المدرسة الألمانية على سبيل المثال- بناءً على خبرات المانية يصيب المشهد الثقافي بحالة من الشيزوفيرينيا"الانفصام"تمفصلت عن تشرذم بين "الماضى" وبين "الغد" لأن خريجي المانيا- على سبيل المثال لا الحصر- خبراتهم الماضوية ألمانية وليست عربية، ومن هنا ينتج الخلل السوداوي.

هذا بالاضافة الى ما قد تفرضه النخب السياسـية والثقـافية والصحـفية والاقتصادية، وغيرها، من قيم ثقافية مستوردة على المشهد الثقافي الأم. فتضعه في خانة الحرج الثقافي. اذ يصبح غير قادر علىتشكيل ذاته، فيشـعر بالنقـص الوجودي، مما يدفعه الى تبديد هذا النقص، بتنحيه نفسه عن ابداع صياغات ثقافية جديدة تجعله معتمداً بالتالي على ثقافة"الآخر" في اعلان ذاته وتحقيق وجوده.

من هنا يتضح لنا بأن المشهد الثقـافي يعانى من حـالة تدعى"الانتحـار الثقافي" ساعة اعتماده اعتماداً كلياً على القيم الثقـافية الأخرى في بـلورة ذاته، ومسيرته في الركب الثقافي على المركب الثقافي الخاص"بالآخر". لأن مركبـه الثقافي- اي المركب الثقـافي "للأنا"- يعاني من ثقـب في مخه المفكر. فهو ليس قادراً بالتالي على حمله- اي حمل المشهد الثقافى- على محمله ونقله الى الميدان الحضاري، الذي يخلّد الثقافات التي تعقدت وتطورت وسـاهمت في اضافة معان جديدة الى بني البشر، وسـاعدتهم وتسـاعدهم في الانتقـال من"الآن" الى"الآن" المستقبلية الافضل والارقى.

## الجزء الرابع: دعوة الى الانفلات والتشّكل بالتالي

لن نستطيع ان ننفلت من القوى التى ننجذب نحوها الا اذا توغلنا وتقمصنا نفسية تلك القوى وعقليتها. فبادئ ذي بدء نحن مدعوون الى تقمص"الآخر" لنتمكن من دراسته بمنطق عقلاني يمكّننا من معرفة مواطن قوته ونقـــاط ضعفه. لنعمل بالتالي على التحرر من هيمنات "الآخر" التي استباحت محارم مشـــهدنا الثقـــافي وساقته الىمقابض الجلاد التي حكمت عليه بالانطمار والاندثار والانتحـــار. لكي لا تقوم له قائمة بين الامم والشعوب. لكن السؤال المطروح، كيف لنا ان نتقـــمص "الآخر" ونتوغل في عقليته؟

اولاً: مدعوون الى الاطلاع على تراث "الآخر" وثقافته، ونتاجاته الفكرية والادبية، لنتمكن من قـــراءة افكاره، ومعرفة الوضعية التي يتشـــكل منها عقـــل "الآخر" ليصار بالتالي الى وضع فلسفة جديدة يحـــدد بموجبـــها كيفية التعامل مع "الآخر" ومع نتاجاته.

ثانياً: التعامل بحذر شديد مع بعض النظريات والافكار والفلســـفات التي تورد الينا، سواء نقلت الينا عن طريق النخب او قادة الرأي او الوسائل الاعلامية المختلفة فهذه الافكار يمكن ان تحدث بلبلة اثناء صياغة المشـــهد الثقـــافي، اذا ما تعومل معها بعشـــوائية، او بــــــمنطق ضعيف، كما يتم التعامل– الآن– مع فكرة "عولمة اللغة"، اذ يتم التعامل مع هذه الفكرة بمنطق ناقـــص وضعيف، يعاني من ضعف في رؤية الاهداف التخريبيــــــية لهذه الفكرة ولكل الافكار التي هي على شاكلتها.

ثالثاُ: التحرر من الافكار السوداوية التي تسيطر على "الأنا" وتعيشـــه في جو من الظلمات، كفكرة رقي الرجل الابيض، وتخلف باقي الشعوب، فهذه الفكرة – على الرغم من بساطتها– جعلت"الأنا" يؤمن بضعفه، وفي المقابل يؤمن بقوة

"الآخر" وقدرته على قيادة نفسه وقيادة "الآخر"- اي الأنا ههنا- من منطلق قواه المتحضرة عقلياً وميكانيكياً.

لهذا فدعوة من هذا القبيل تجعل من "الأنا" قوة منافسة "للآخر"تؤمن بنفسها وقدرتها على تحقيق ذاتها، وصقل شخصيتها، وبلورة مشهدها الثقافي بعيداً عن تطفلات"الآخر" وتراتيله.

قد تكون هذه الاشياء- بالاضافة الى ملايين الاشياء الاخرى-"التعويذة "الانسب للتحرر من القوة الشيطانية التي استباحت قوة"الآخر" وتركتها اشلاء يزور اطلالها- بين الحين والآخر- عفريت من عفاريت الانس ليدوسها بقدميه القذرتين لتبقى على الدوام محفوفة بالقوة العفريتية التي لا تعرف الا الخراب.

ربما هذه الاشياء تمثل"تعويذة" مناسبة تحمينا من الشر وتدفعنا في الوقت ذاته الى تشكيل مشهدنا الثقافي من جديد، يستند على الايدلوجيا الربانية- اعني الاسلام- لتدعيم كيانه، انطلاقاً من تطور وتقدم الايدلوجيا الربانية، وضمور وتخلّق الايدلوجيا الوضعية. على اعتبار انها- اي الفكرة الربانية – تعتبر ميداناً كل مكوناته معقولة محمولة على محمل المعقول المنطقى السليم، على عكس الايدلوجيا الوضعية اللامعقولة التي تحاول اقناع "الآخر" بمنطقها المستور المراوغ.

اذن الدعوة موجهة الى التوحد مع الفكرة الاسلامية، لأنها الفكرة الحقة، ولا سبيل – إن عاجلاً أم آجلاً- الى الصمود وتحقيق الذات، ومواكبة التطورات المعرفية والعلمية، الا اذا تسلحنا بمنطق صحيح متمخض عن فكرة حقة سالمة جينياً.

## الفصل الثالث

# بين "الآن" و"الآن" ضمن معطيات " الآني"

"لماذا أنا هنا؟"
"ان الجواب الذي طالما اعطاه حكماء العالم هو اننا هنا لنكمل انفسنا لننمو في المقدرة على الحياة، وعلى العمل التعاوني البناء نحن والاخرون"

**أدغر دايل**

## الروح نفحة من ذات الله

اللامتناهي بـــعلم الله اللامتناهي متناهي بـــعلم الانســـان المتناهي، لكن المتناهي البشري قد يلج الى "اللامتناهي" بمجرد إعمال التفكير جرعة اضافية عما تعود عليه افراد النسق الاجتماعي، وهذا "اللامتناهي" البشري لا يعني تعدياً على "اللاتناهي"الإلهي، لأنه "لا تناهي " متناهي.

وانـنا كبشر نؤمن عل الاطلاق بـــــ "لا متناهي" في جوهره متناهي– مع تحفظ البعض بعدم الاقتناع بالمتناهي وسعيهم الدؤوب نحو"اللامتناهي"على الرغم من ان تحـــفظهم هذا في جوهره ليس الا تمركزاً حـــــول الذات، لأن الله المتفرد بربوبته يعلم بعلمه السرمدي الأزلي، ان هناك شاطحون يسعون الى"اللامتناهي" في ذات اللحظة التي يتقوقعون فيها.

وهذا الايمان العميق باضمحــــــلال اللامتناهي وتحــــوله الى متناهي ضمن المعطيات البشرية كان قد ترسخ في صميمناعبر هذا المد الرباني المتجلي علينا في اشد صحواتنا الفكرية الراقية المتشكلةعبـــر سلســـلة من الاندفاعات المزلزلة لعمقنا.

لذلك جاء هذا الاندفاع المعقـــلن والمتجســـد في ماهيتنا ليجعلنا ننفلت من عقال التقوقع المتناهي الىعالم الروح"اللامتناهي" في محاولة منا لايجاد تفســـير ولو على المستوى التجريدي لهذا اللغز الرباني الذي انحنى امام عظمته كل العقل البشري عبرتاريخه الماضوي والحاضري والمستقبلي، وسيبقى الانحناء بحـــالة صمت الى ان تفيء البشرية الىوضعها التالي.

وهكذا ليس بامكاننا بادئ ذي بدء ان نوجه اتهاماً الى روح الانسان كروح لا يعرف كنهها ومكنونها ومضامينها الا الله الآمر الناهي، لكننا نستطيع ان نوجه

اتهاماً الى سلوك الانسان كمجرم اوسفاح اومرابي...الخ.

وانطلاقاً من هذا التوجه لسنا بصدد الحديث عن "لب الروح" او "ضمير الروح" لأن هذه الأمور ليس لنا عليها سلطان ولسنا مؤهلين بخوارق او معجزات لنخترق حواجز (الـ ما وراء) وحواجز "اللامتناهي" لنتمكن من سبر اغوار الروح والسيطرة عليها لدراستها والحديث عنها، لكنا نود الحديث عن "ظاهرية الروح" كمعلم من معالم تجليات الله على بني البشر.

بداية الروح – كمعطى رباني – من اجلّ واعظم الاشياء في هذا الكون المدرك وغير المدرك من قبل الانسان، لأن هذه الروح آتية من قبل الواحد الأحد. فالروح "نصاً وروحاً" "موضوعاً ومضموناً" ما هي الا قبساً بسيطاً من نور الله المتفرد المتعالي.

والانسان كروح متمرسة على الاضطلاع بما يتماشى مع هذا القبس الرباني، هو انسان جدير بالتقدير والاجلال من قبل بني البشر وموجد بني البشر، لأن الانسان اذا عمل على تغذية هذه الروح بما ينسجم مع اصالتها الربانية فما هو إلا محترم وملتزم بإرادة الله، الذي كرمه ان منحه هذه الروح التي تجعل الانسان اجل شأناً من الملائكة، اذا ما احترم هذه الروح وبجلها.

واحترام الانسان لهذه الروح لا يتأتى الا بنقاء الفكر والسلوك المتمخض عن الفطرة السليمة غير المتلاعب بنقائها من البيئة المحيطة والمتمثلة بممارسات واعية وغير واعية تؤدي الى الاضرار بنقاء الفكر والسلوك مما يترتب على ذلك شلل روحي، يصيب الانسان كتفكير وسلوك، لكن هذا الشلل وان اطلقنا تعسفاً عليه شللاً الا انه غير قادر على الوصول الى الروح كروح لأنه اصلاً غير مؤهل للتعرف عن كثب على هذه الهبة الربانية المتناهية بعلم الانسان المتقوقع التفكير.

(يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ) (الاسراء : ٨٥ )

هذا النص الرباني يبين ان لا طاقة لنا على الالمام بـــ "ضمير الروح" مما يحتم علينا ان نؤمن بهذه الروح على انها شيء مقـــدس آت من قبـــل الله المتفرد بألوهيته في هذا الكون "اللامتناهي". ويحـــتم علينا ان لا نكون اغبـــياء لدرجة ان نصدّق ما يحكيه لنا بعض المهرطقين من ان الروح "ذبابة" او انها "النفس"، وغير ذلك من هذه الهرطقات المعلبـــة بـــالتزييف والتدجيل، لا هم لها ســـوى اشـــهار اصحابها المدعين الفكر والتفلسف.

ولست في مقالي هذا أريد أن استنبط شيئاً جديداً في امر مبتوت فيه من قبل الله الرحمن الرحيم، ولست في ذات الوقت اريد ان انغلق في حلقـــة مفرغة مليئة باحاديث واقاصيص مغلفة ومزيفة.

لكن ما ينبغي ايصاله هو ان نقـــف عصاة عتاة في وجه هذه الهرطقـــات الفكرية التي تدعي سبر اغوار الروح ومعرفة نواميسها، وان نكون متيقظين لهذه الهرطقـــات ومثيلاتها التي قـــد تقـــودنا الى متاهات لا مدارات لها، تدفعنا الى تفسيرات ليس لها صلة بـــ"لب الروح" لا من قريب او بعيد الا للذين ينظرون لهذه التفســيرات على انها الهامية خارقـــة لنواميس"الزمكان" يتحـــتم على الاخرين الاقتناع بها وشحن عقولهم بها.

ومن هنا يظهر عجز الانسان- مستخدماً كل اسلحته العقلية- في الحديث عن الجانب الماهوي من الروح. وحتى وان تحدث عن باطنية الروح ذات المجال الرباني فانه يكون قد مارس تمرداً ضد جوهره كعقل ونفس- لأنها اصلاً لا طاقة لها على الشطحان الوجودي والحديث بالتالي عن اشـــياء جعلتها "الذات الإلهية" مجالاً محرماً او خطاً احمراً، لا يحـــق لأي كان ان يتعداه او حـــتى الوصول الى بداياته، لتبقى الألغاز الإلهية محيرة لأفكار العقل البشري ومانعة له من الوصول الى "الذات الإلهية"، وسادة عليه الطريق منذ البداية على اعتبار ان البداية بداية

البداية بداية النهاية و النهاية نهاية البـداية.لكن البـعض و انطلاقـاً من ايمانهم القوي بعفريتيتهم وقدرتهم على ثقب المجهول و اعلانهم لألوهية عقولهم، وجدوا انفسهم يتحدثون عن الروح وما هويتها – مشافهة او مكاتبـة– للوصول بـالتالي الى "الذات الإلهية" ليس من منطلق خرق افكارهم للمجهول، بـل من منطلق المنطق القائل بضرورة البحث– للعقـل البشـري– عن مزيد من التأله، خلا ان "التعفرت العقلي" لا يلبث ان يتبـدد سـاعة اخضاع معطيات الروح الى المضمون العقلي الراقي المدعم بالنصوص الموحـى بـها من قبـل الموجه لنواميس الكون، فتتشكل بالتالى قناعات راسخة تؤمن بأن"الضمير الروحـي" و "اللب الروحي" امر لا نستطيع البت فيه، لأننا كبشر نفكر تصطدم افكارنا– مهما بلغت رقيا او شطحا– بجدار المتناهي المرسـوم لنا من قبـل القـدوس المتفرد بوحدانيته. (وما اوتيتم من العلم إلا قليلاً) (الاسراء: ٨٥)

فهذا النص الرباني يجعلنا نؤمن على الاطلاق– اذا ما ربـطناه بـالنص الرباني سـالف الذكر بـاننا فعلاً غير مؤهلين للحـديث عن مكنونات الضمير الروحي.وبناء على هذا يصبح مصطلح الروح من المصطلحـات "اللامتناهية" التي عجز العقل البشري عن فهمها و احاطتها بعنايته، مما شـكلت على الدوام– على طول الزمان– فارقاً واضحاً بين العقل البشري بمعطياته المتناهية، مقارنة بالذات الالهية بقدراتها ومعطياتها"اللامتناهية" الخارقة للزمان و المكان و الثاقبة لكل شيء – كبـر ام صغر – في هذا الكون (المتناهي اللامتناهي)، و الحارسـة للمصطلحات الرهيبة"كالعقل" و "الروح"و "النفس و "الذات"، وغيرهامن الامور– التي تسبب نزيفاً في المضامين العقلية، اذا ما اشتغل العقل على جبهتها– لتبقـى هذه الامور ومثيلاتها علامات فارقة بين"النفس الانسانية" و "الذات الإلهية".

كل الصياغات الوضعية- أعني التي صيغت من قبل بني البشر التي صاغتها العقلية البشرية على امتدادها وهي في وضعيتها الدنيوية، أعني من آدم عليه السلام الى ان تلقى البشرية خالقها ومنشئها مع نهاية"الوضع الآني" هي صياغات تعاني من الانفصام "الشيزوفيرينيا". فالنقص ملازم لها، والكمال ممتنع عنها، انسجاماً مع طبائع البشر الرافضة أو بالأحرى المعلنة ضعفها أمام كمالية "الذات الإلهية "، والراضية في ذات الوقت- طوعاً وكرهاً- بنصيب قليل من المخ البشري المتقوقع في صندوق الجمجمة.

ونتيجة لتقوقع المخ البشـــري داخل الجمجمة، كان لا بـــد ان تعاني كل الصياغات المتمفصلة عنه من"الشيزوفيرينيا" ولا بد - ايضاً- من اشكاليات في التنظير، لعدم القدرة على سبر غور الذات، والالمام بكل تفاصيلها، لأنه اصلاً- اي المخ البشـــري- لم تفهم كل تفاصيله- رغم فهم بـــعضها، فكيف يفهم الذات الاخرى بشكلها المطلق- اعني العقل كمتعال- والتنظير لها بالتالي بـــأيدلوجية طوباوية تعكس فهما متحضراً للذات بمعناها المطلق، حيث اصبحت قادرة على التنظير لكل الذات بمعناها المجسد، ولم تعد بحـــاجة الى إعلان عبـــوديتها الى جاذبية القوة الجمجمية.

لكن الحاصل مع فك اشكالية الزمان-هو العكس، حيث إعلان النقـــص، والانتماء للقوى الجمجمية، والاشكاليات بالتالي في الصياغات التي ينتجها المخ البشري، ابتداء -جدلاً- بالخرافات والاساطير، والنظريات الفلسفية، والعقـــائد الوضعية، والبراهين المنطقية، وانتهاء -فرضاً - بالقوانين العلمية الصارمة

لهذا كله-وبالأحـــــرى-نتيجة للشـــــــيزوفيرينيا التي عانت منها كل الأيدلوجيات الوضعية- جاءت الرســالة الســماوية الاسمى(الاســلام). لتخرج البشرية من سباتها الروحي والفكري بـــعد الركود الذي اســتمر مدة من الزمان، وكان من الممكن ان يستمر الى ساعة انتهاء "الوضع الآني".

لكن العناية الإلهية كانت تتدخل في أوقات بعينها-لحكمة سرمدية في علم الله السرمدي-الى ان جاء التدخل الإلهي بالفكرة الاسلامية بــصيغتها النهائية في النص القرآني والحديث الصحيح. بلغة اخرى، نتيجة للنقــص الملازم للطبــيعة البشرية، ونتيجة لعجز العقــلية البشـــرية عن انتاج أيديولوجية متكاملة شــاملة وصالحـــة لكل بـــني البشـــر في اي مكان واي زمان. نتيجة لهذا كان لا بــد من ايديولوجية- بالمعنى المتعالي للكلمة- تصيغها الحكمة الإلهية على شكل رســالة سماوية، نقلت عن طريق الوحي الى الارض، وبالذات الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليعمل بدوره على نشـــرها وتعميمها على كل بـــني البشـــر، لتتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل، لصلاحيتها وديمومتها ومرونتها، وعدم حكرها على جيل من دون آخر لأن منشـــئ هذه الأيديولوجية بـــمعناها الإلهي هو الله جل جلاله العارف بأمر الطبيعة البشرية، وأمر عقليتها. لهذا جاءت الايدلوجية الاســلامية، ايدلوجية متكاملة في النص القرآني، حتى احاديث سيدنا محـــمد-عليه الســلام- كانت عبارة عن وحي يوحيه الرب جل في علاه الى ســيدنا محـــمد عن طريق الملك جبريل. لتكون الرسالة الســماوية الأســمى متكاملة من جميع الجوانب، لا يشوبها شائبة تتعالى فوق الزمان والمكان، صالحة لكل بني البشر على اختلاف ثقافاتهم وشرائعهم ولغاتهم واجناسهم.. الخ. ومن هنا كان الله الواحد هو المختص الوحيد بصياغة الأيدلوجية الاسلامية مباشرة عن طريق النص القرآني، وبطريقة غير مباشرة عن طريق الحديث الشريف الصحيح.

لهذا صبغت الرسالة الإسلامية بصبغة ربانية مطلقة، وفي ذات الوقت حرم على بني البشر التعدي على النص الرباني بإضافات جديدة وفبركات فكرية جديدة تضيف شيئاً جديداً للأيدلوجية الاسلامية، لأنها أيدلوجية متكاملة بصبغتها الربانية، وليست بحاجة الى إضافات بشرية ناقصة، لأن إضافة أي نص بشـــري الى النص الإلهي يعني تعدياً على الحق الإلهي، يمارسه بني البشـــر أثناء إعلانهم الحـــاكمية لعقولهم بدلاً من الحاكمية لله. كما فعل مسيلمة الكذاب عندما عمد الى صياغة نص جديد ليكون عوضا عن النص القــرآني وكما فعل بـــعض المتطفلين عندما اخذوا بفبركة بعض الاحاديث ونسبها الى ناقل الرسالة السماوية(الاســلام)، لذلك أوجد العلماء المسلمون نظاماً صارماً لتبويب الاحاديث عرف "بالجرح والتعديل" وقبـل ذلك جاء التحذير الرباني على لسان سيدنا محمد –عليه السلام– عندما قـــال: "من كذب علي عامداً متعمداً فليتبؤا مقعده من النار".. ليس لأن الكذب مجرد اقـــتراف مدنس حرمته الرسالة السماوية، بل لأنه يمثل تمرداً بشرياً يتمثل بـــصياغة جديدة تضاف الى الفكرة الاسلامية بمضامينها الراقية. كما فعل– كما اشـــرنا مسبقـــاً– بعض المتطفلين من صناع الحديث. الذين أرادوا نسبـــتها – أي أحـــاديثهم– الى الرسول محمد عليه السلام– أي اضافتها الى الأيدلوجية الاسلامية، على اعتبار أن سيدنا محمد –عليه السلام – ليس الا ناقلاً لهذه الأيدلوجية الراقية.

اذن ومما سبـــــــق نصل الى ما مفاده ان الكذب الايدلوجي –فيما يخص الأيدلوجية الاسلامية– يعتبر خطأً انطولوجياً يضطلع به بـــعض البشـــر المؤلهين لعقولهم والمعتقدون بربوبية كذبتهم الأيدلوجية.

وهذا الخطأ يمثل تمرداً بشـــرياً ناقــصاً على ملك الملوك العارف بـــأمر البشرية، والمنزل عليها رسالة سماوية لإسعادها وتحقـــيق رفاهيتها، ونقـــلها من دياجير الكذب الأيدلوجي، الى قناديل الحق الإلهي.

برغم خداع الظاهر للناظر، إلا أن كنه الظاهر غير موح بما يوحـــي بـــه الظاهر. أقول هذا لأدلل على عمق الباطن واستبطانه لمفصليات يتمفصل عنها عند انفصالها عن مركزيتها افكار متقلقة ومضطربة تزعزع مسارات العقل البشـــري وتصدع أركانه، وتعيشه في حالة من "اللاارادية" التي يبدأ على اثرها- أي العقل- بهذياناته المتمثلة بســيطرة مجموعة من الأفكار عليه هي أقـــرب الى حــكايات الاساطير الخارقـــة، ففي هذه الافكار او بالأحـــرى مع هذه الأفكار يكون العقـــل البشري مازال في مهده، ولم ينتقل بعد الى الخطوة التي تليها أو بالأحـــرى- منعاً للتخبط المعرفي - يعود العقل البشري إلى سالف عهده، حــيث كان ما يزال يعاني من الشيزوفيرينيا- بالمعنى المعطى للكلمة- ولم يكن قادراً بــعد الى الجلوس على مائدة المقارعات الفكرية ليدلي بدلوه على شاكلته وهو عقـــل- بـــالمعنى الشـــامل للكلمة- اذ يكون العقل في حالة من عدم الاستقرار الانطولوجي حيث الاضطراب وعدم القدرةعلى اصدار الأحكام المعقلنة والمتعلقة بمن أنا؟ وما مصيري؟

هذه الاضطرابات المصيرية بقـــدر ما فيها- ظاهريا- قلقـــاً على كينونة الانسان، بقـــدر ما فيها - بـــاطنياً- فائدة لكينونة العقـــل، وانتقـــاله من مراحـــله "اللاإرادية" الى مراحل اخرى يصبح - أي العقـــل - على اثرها أكثر تمرداً على البساطة والسذاجة، الى درجة تقنين شطحاته ساعة سكرات الموت ساعة الاندهاش والانبهار الوجودي، التي لا فكاك منها الا لمن عمل ويعمل وســيعمل على تفكيك شيفرة العقل. المتمثلة بـــــ-مرة اخرى- من أنا؟ ولم أنا موجود؟إذ ان تفكيك هذه الشيفرات، وثقب ظلماتها، يكشف عن المستور ويزود كينونة العقـــل بحـــلول ولو تجريدية لمشكلته الوجودية، وتمنحه جرعة كافية من المنطق المعقـــول، تســـاعده على كبح جماح فلتاناته الفكرية التي قد تقوده في كثير من الاحيان الى الانحراف

عن الأهداف الكبرى لهذه الحياة، والتخبط الوجودي بالتالي، والوقوع في شرك المعتقدات والافكار الزائفة التي ما تلبث ان تفكك وجودية الانسان وتشظيها.

ولزحزحة هذه الاشكالية – اشكالية الانحرافات في المنظومة العقلية – كان لا بد للعناية الإلهية من التدخل خشية على مصير الإنسان ووجوده، من أجل الابقاء على العقل البشري ومنعاً لانتحاره. لذلك جاء التدخل الإلهي – لكبح البلبلة الوجودية – عن طريق النصوص الربانية والشرائع السماوية التي تنزلت على الأنبياء والرسل، والتي بينت أن قلق الانسان على وجوده يتلاشى ساعة إيمان الانسان وتيقنه بأنه سيبعث من جديد، وأن مصيره إما الى الجنة او النار. وتجلى تدخل الواحد الأحد للفصل في هذه المعضلة المؤرقة معضلة القلق الوجودي – بالنص القرآني على وجه المطلق، إن لم يكن نصاً فروحاً، وإن لم يكن بظاهرية النص فبكيميائيته الى درجة أصبح فيها النص القرآني – كل النص القرآني – مقنناً لفلتانات العقل، وسادا لثقوبه التي توشك – مع نزع الاعتبارية الزمانية لمنح "توشك" بطاقة خارقة للزمن – أن توقع العقل البشري في حلقة مليئة بالتساؤلات والتهيؤات الهلامية التي تجدب العقل، وتفتح عليه أبواب الإلحاد، والتمرد عى الذات الإلهية، اعتقاداً منه بخرقه للمألوف ورغبة منه في تأليه نفسه، في محاولة لاستكمال مشروع "مملكة العقل" بعيدا عن تطفلات الماجنين وتوجيهات المصلحين. والتدخل الربوبي في تقنين إلهية العقل، لم تكن من باب التحدي الإلهي للعقل المتأله من منطلق الربوبية المطلقة مقارنة بالعقلانية بالمعنى المتحضر للكلمة – النسبية –بل من باب الرفق به ، ومنعا لتخبطه في هذا الوجود، وحتى لا تنخرط البشرية في متاهات لا حصر لها من "اللامتناهى"و "الماوراء" وخرق المجهول وكشف المستور وتحميل اللامعقول على محمل المعقول ليصير اللامنطقي منطقاً يكشف نوامبس الكون، ويثقب أسوار النفس البشرية.

لكن عناية السماء – أعني الرب جل في علاه – ومن منطلق رحمتها اللامتناهية، وضعت قانوناً للحد من القلق الوجودي الذي ينذر بالخطر البربري الذي يداهم العقل البشري ويسحق افكاره، وكان من ابرز القوانين الإلهية التي حددت معلماً من معالم وجودية الانسان.

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات: ٥٦)

فهذا القانون الرباني بصيغته المتعالية حدد سبب وجودنا، وأراح العقل البشري من الانخراط بتجاوزات المفكرين، وتألهات الفلاسفة، وغيرها من الافكار الهدامة.

وبعد هذا يجيء القانون الإلهي بصيغة ربانية جديدة تحدد الاتجاه الذي نسير فيه، والى أين نحن ذاهبون، (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) (البقرة: ٢٨)

ثم يحدد الرب جل جلاله مصائرنا من خلال كثير من النصوص القرآنية منها:

(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) (محمد: ١٢)

وهكذا ومن خلال الاشتغال المتواضع على جبهة النص القرآني، والتعامل بحذر شديد مع معطياته، نتبين على أنه جاء على اعتبار أنه كلام يتعالى فوق الزمان والمكان لمنحنا الاطمئنان الوجودي – حتى ساعة سكرات الموت – الذي يحقق لنا فهماً حقيقياً للمفاهيم الكبرى في هذه الحياة كالسعادة والحق والخير والجمال.

**تقنين العقل**

ينطوي الموجود على لغم رهيب تتزعزع لقعقعته وتململه قوى البشر، وتصاب بحالة من الهوس الجنوني أو التصوفي، يحدث على اثرها تشظ في المنظومة البشرية المقزمة التي تنطوي على حس عظيم، بعضه متشائم وبعضه الآخر متفائل الأول ملهاة والثاني مأساة، الأول مأساة والثاني ملهاة، ربما متفائل وكوميدي في ذات الوقت وقد يكون متفائل وتراجيدي في ذات الوقت ذاته.

وهناك احتمالية – ونسبة الاحتمالية عالية – في انشطار التشاؤم الى شقين احدهما تراجيدي والآخر كوميدي، واحتمالية الانشطار قد تلم بالتفاؤل وتشطره الى نصفين: نصف يضحك ونصف ينتحب. وعطفاً على الاحتمالية احتمالية جديدة في انفجار اللغم وحدوث كارثة مفجعة تلملم على اثرها كل المأساة والملهاة والتفاؤل والتشاؤم التي تقود الى فاجعة حقيقية في فهم الموجود والبحث في كنهه، او محاولة تجريد واقعيته ليصير بالتالي وحدة كلية متعالية، يسعى بنو البشر إليها مستخدمين كل طاقاتهم في التوحد معها، لتنقلهم من هيمنات الواقع الى الفضاءات "اللامحدودة" للتجريد.

والسعي البشري في الانتقال من الماديات الى المجردات لا بد له من اندفاعه فكرية عظيمة جداً، يشارك بها كل العقل البشري، من أول الزمان الى آخر الزمان، من آدم – عليه السلام – الى آخر فرد – رجل كان أم امرأة– سيعانى من جبروت سكرات الموت.

انها الاندفاعة الفكرية الكبرى التي يسير في ركبها كل ما انتجه العقل البشري من منتجات مادية ونفسية وروحية، وغيرها من المنتجات الفلسفية والمعرفية والعلمية. والتاريخ العسكري والايدلوجي والفلسفى والاقتصادي والاجتماعي .... الخ.

إنها اندفاعة سارت وسار معها الباطنيون والصالحــون والمعدمون والمعقــدون والمتملقــون والمنخدعون والطغاة والاقــنان والملوك والبرابــرة، وكل الجنس البشري على طول الزمان "الآني"، في محاولة لم تكتمل بعد للتحرر من الماديات، والتعامل بالتالي مع المجردات.

انها اندفاعة انزلق فيها العقــل البشـــري انزلاقـــات جمة نتيجة لضعفه الانطولوجي، وتمثلت هذه الانزلاقات بالنقص والضعف لكل ما انتجه أي العقــل من علوم ومعارف وفلسفات وصياغات على المستوى "المادي" و"المجرد" إضافة الى عدم تمكنه من تفسير بعض الظواهر والاشياء التي يوحي ظاهرها المتعارف عليه باستبطانها لمدلولات خفية رهيبة، كالروح والجمال والحــكمة. حــتى وان شرع العقل في تفسيرها فإن انزلاقه يكون أكثر عنفاً، كتفسيره للروح على سبيل المثال لا الحصر بترجمتها الى اشياء مادية محسوســة. على الرغم من ان الروح من المجردات التي توحي بخفاء رهيب متسامي، لو كشفت للعقل وهو في وضعه "الآني" أو لو استطاع كشف مستورها او حقيقتها لانتحر العقل البشري، كل العقل لبشري، دون استثناء، وحادثة "طور سيناء" مثالاً واضحاً على ذلك.

وفي محاولة لتقنين العقل وتقنين انزلاقــاته، جاء "الوحــي" ليكون بمثابــة القانون – وأي قانون– الذي يقنن التخبــط العقــلي، ويحــمي بــني البشــر من الانحرافات العقلية التي يترأسها بعض المفكرين والفلاسفة ورجال الحكم والطغاة من الرجال والنساء، والتي تؤدي الى تخلخل في المنظومة الحياتية لبني البشــر، وتقودهم الى متاهات بربرية تنم عن دغمائية العقل ورجعيته، واحــتضانه لكلاب لا تجيد الصيد او الحراسة وتسعى بطريقة او بأخرى الى النباح لتثبــت وجودها، بناء على "كوجيتو" جديد معادل للكوجيتو الديكارتي "أنا انبح إذن فأنا موجود".

لكن ولحماية البشر من هذا التخلخل، ومن كلاب الليل النابحة جاء "الوحي" بدفقاته الشعورية المتكاملة التي تلجم فلتانات العقل، وتقننها، وتوجهها نحو ما هو خير للعقل ذاته وللبشرية، فقد جاء الوحي – على سبيل المثال– بتوجيهات للعقـل تقنن اشتغاله على بعض الجبهات كجبهة الروح – لان اشـتغال العقـل عل هذه الجبهات، دون الرجوع للقانون الذي جاء به الوحـي تؤدي الى طحـن الافكار، وخراب العقل، وبوار نتائجه.

لكنه –أي العقل – إذا ما استعان بقـوة "الوحـي" فإنه يريح ذاته من عناء التفكير فيما هو وفوق امكاناته وطاقاته، ويسد على نفسه طوفان من التهيؤات التي ترهقه وتضعه في خانة القلق الوجودي، وتدفعه الى تأليه نفسه والرفض بـالتالي لألوهية وحاكمية الله.

وهنا يكون العقل قد مارس بحق ذاته دوراً بربرياً ممزوجاً بطقوس الغباء والتوحد مع الهمجية العقلية، اذ يكون قد وصل الى حالة من "الانتحار الوجودي"، يعجز – أي العقل – على إثرها عن تهيئة نفسه للانتقـال من "الوضع الآني" الى "الوضع التالي".

لكنه يستطيع ان يمنع عن نفسه ذلك الانتحار، بمساعدة قوى "الوحي" التي تشكل اذا ما اجتمعت بقوى العقل – بصيرة ثاقبة تحدد الأولويات اللازمة لتهيئة الفرد في الانتقال نقلة وجودية مضمونة العواقب من "الآني" الى "التالي".

**لعنة المفهوم**

ان بداية مرحلة من الشك في كل شيء لإثبات كل شيء، تشبه رحلة تقـوم بها مريضة بمرض " الشيزوفيرينيا" الى العصور الغابـرة لتثبـت حقـية الآلهة لطقوس رهيبة مقدسة تحفها الذات بزفرات من التنسـك والتعبـد الخالص، وفي محاولة لاستشعار سرمدية هذه الآلهة وازليتها، والتحقق – في الوقت ذاته– من الفارق العظيم والواضح بين الآلهة والعبيد. الآلهة القـادرة على خلق المعجزات، واستحضار المجهول، وصنع الكرامات، والسيطرة على النفس وسبر نواميسها. وفي المقابل العبيد المؤمنون بعظمة الآلهة والطائعون لأوامرها، والكافرون بعدم قدرتها على استعمار نفوسهم ونفعها او الإضرار بها.

البدايات متشابهة الى حد ما، خلا أنها تنطوي – أعني رحلة الشـك–على مخاطرة كبرى قد تقود الى اليقين الجزئي او السوداوية.

فرحلة الشك في الشيء لاثباته تنطوي على شك هي ايضا، لأن فهمنا للشك لم يكتمل أو بالأحرى هل حقاً ما فهمناه عن الشك ينسجم مع مصطلح الشك – اذا ما نظر اليه من منظور إلهي؟ – أي هل تمكن العقل البشري – ليشك في الشـيء لاثباته – المتقوقع في الجمجمة الفولاذية من فهم لمصطلح الشـك ضمن معطيات الرب لهذا المصطلح، أعنى ضمن معطيات الحـق جل جلاله لهذا المصطلح؟ أم أننا حققنا جزءاً من الفهم، واعترفنا بكبرياء أن المفهوم البشري للشك هو نفسـه الذي أراده الله لمصطلح الشك، أو بالأحرى ان مفهوم الشك البشري هو الجسـم المناسب لعقل المصطلح الرباني، على اعتبـار ان المصطلح "ربـاني" والمفهوم "بشري" ومن هذا المنطلق اخذنا ببلورة أفكار معينة حـول الشـك، ادعينا بـأنها الأقرب الى المصطلح الرباني، خصوصا بعد أن زودنا الرب بـالمعرفة أو أمرنا بأن نبحث عن هذه المعرفة، بعد ان منحنا ادوات ووسائل تمكننا من ذلك.

لكن رحلة الشك لا تنتهي عند هذا الحد، لعدم اقتصارها على الشك، بل لتعديها او تجاوزها الشك ذاته، الى الشك خارج ذاته، اي تواجده في الشيء على اطلاقه، فالشيء – سواء كان محسوساً ام ذهنياً – ينطوي على جانب من الشك الذي قد يقود الى فهم شبه حقيقي، إذا ما تعاملنا معه بمنطق سليم يعتمد على "العقل" و "الوحي" معاً، لكنه – أي الشيء – قد يقود الى السوداوية الفكرية المتزمتة.

فشيء – كالكرسي مثلاً – لا نستيطع ان نفهمه على حقيقته – لأننا بعد لسنا مؤهلين، أي في الوضع "الآني" – لكننا نستطيع بعد ان نجسد هذا الشيء (خصوصاً بعد حصولنا على المعرفة وادواتها) وان نفهم جزء منه، ونعترف خجولين نتيجة لضعفنا الانطولوجي – بأنه منسجم مع مصطلحه الرباني.

الكرسي إذن شيء، ولكي نفهم هذا الشيء جسدناه بواقع تعارفت عليه البشرية، وادعينا بأن فهمنا لهذا الشيء منسجم مع اصطلاحيته، لكن حقاً هل ما فهمناه عن الكرسي هو نفسه ما ينسجم مع ما اصطلحت على تسميته "الذات الإلهية" كرسي؟، او للتخفيف، هل الكرسي البشري على شاكلة كرسي العرش؟ وإذا كان كذلك ، فلماذا حملة العرش؟

إذن هناك لعنة تتلبسنا أثناء الفهم، تمنعنا من التوحد الكامل مع المصطلح الإلهي، لتبقى هناك علامة فارقة بين "البشري" و"الرباني"، بين "التعالي" "والقصور".

إنها لعنة الماضي والحاضر والمستقبل – أي الآن – إنها لعنة "الآن" التي تشبثت بعقولنا وجعلتها قاصرة عن الفهم الكلي، والتوحد بالتالي مع تساميات المصطلح ذو المعطيات الربانية.

إنها لعنة القصور الذهني لبني البشر ، التي فهمت ربما لم تفهم – او بالأحرى التي عملت على تركيب المفهوم المرئي على المصطلح اللامرئي، في

سبيل الرفق بالعقل البشري من هيمنة المجرد، لأننا ماديون بالطبع – حسبما أفاد "برجسون" – نسـعى الى التعامل مع الماديات، إذ نجسـد الشـيء المجرد الى محسوس، فنقول الشيء هو "كرسي" او "قـدم" او "برتقـالة"، لأننا لا نعلم ما هو الشيء كمجرد، لانطوائه على شـيء آخر صعب المراس، هذا بـالاضافة الى احتواء الشيء على شيء آخر هو "اللاشيء" وفي ذات اللاشيء شيء.

اذن رحلة البحث عن فهم حقيقي للمصطلح، تنطوي على مخاطرة كبـيرة جداً، اذا ما تعاملنا مع الشيء كمجرد، لأن العقل البشري وهو في "وضعية الآنية" غير مؤهل للاتحاد مع "الفهم الكلي للإصطلاح الربـاني"، انطلاقـاً من مخاطر الرحلة تجاه المجردات التي يقودها العقل الذي يعانى من ضعف انطولوجي، وهو في وضعه "الآني"، تماماً كالرحـلة التى تقـوم بـهـا المريضة التي تعانى من "الشيزوفيرينيا" – تجاه العصور الغابرة مع بعض التحفظات.

## الفكرة والمكان

### * الطرح العام

يجوز للانسان او بالأحرى للفرد ان يقـدّم تنازلات جسـيمة يمليها عليه معتقده، او بتعبير اكثر دقـة"فكرته"، الى درجـة قـد يصل معه هذا التنازل الى الانتحار او الاستشهاد اذا اردنا تجميل التنازل وتزينه بل وتنزيهه كما حصل مع شهداء "الفكرةالشيوعية".

الشهادة – بادئ ذي بدء– من أجل "الفكرة " ليست حكراً على البلشفيين او الفرنسيين او الهنود الحمر، لكنها قاعدة تبنتها كل الأفكار سواء الربـانية منها او الوضعية، على اعتبـار ان "الفكرة "، قـادرة على خلق المكان وتخليد الزمان وصناعة التاريخ.

ومن هذا المنطلق أخذت المجتمعات البشرية – بـوعى او بـدون وعي- بالالتجاء الى "الفكرة "، لتحـميها من "الفكرة" المضادة ومن أجل توظيب المكان لتخليد الزمان وصناعة التاريخ– وليكون لها هويتها التي تثبت وجودها وتحـافظ على كينونتها. فمواجهة الشـعب الفلسـطينى–على سبـيل المثال – للمؤسسـة العسكرية الصهيونية ليس من أجل شيء خلا المحافظة علىالهوية الفلسـطينية التي تنتمي "للفكرة" العربـية الاسـلامية. الفكرة الاشـمل التي توغلت – لقـوة منطقها– في العقل العربي – بشكل خاص– وتشبثت بمنطقـه حـتى غدت"فكرة" يدافع عنها في سبيل المحافظة على "الأنا" من اختراقات "الآخر ".

وما ينطبق على "الفكرة الاسلامية "ينطبق على كل "الفكر" اين كان منتجها وصانعها، فهناك "فكرة بـوذية" وفكرة كنفوشيوسـية" وفكرة شـيوعية" وفكرة رأسـمالية"، وغيرها من الأفكار التي تدافع عنها الشـعوب، وتدفع بشبابـها وعساكرها للدفاع عنها وصونها من اختراقات "الآخر". لأن "الفكرة" تعتبر جوهر

المجتمعات ومخها المفكر، وأي مجتمع عارٍ من "فكرته" – أي جوهـــره– فهـــو مجرد هلامات لا أسس تستنده ولا أركان ترفعه وتشكل له ذاته. ومن هنا نســـتنتج بـــان "الفكرة " هي الجوهر الذي يتمفصل عنه المظهر، فبـــدون الجوهر يتبـــدد المظهر ويتلاشى – ولا مكان له سوى المعتقل التاريخي لافتقـــاده الى الأداة التي تصنع التاريخ، وتمكنه من ربـــــــح ورق اليانصيب التي تؤهله لتطويع الزمان والمكان، والاستفادة منهما لتخليد "الفكرة".

*** الفكرة تصنع المكان**

إذا كانت"الفكرة" هي الجوهر، وإذا كانت قـــــادرة أي الفكرة على اختراق الزمان، فانها بالضرورة قادرة على خلق المكان، والعكس ليس بالعكس. من منطلق الضعف المكاني وعجزه عن تشـــكيل الذات، لأن المكان من دون "الفكرة" يكون مشاعاً الكل يطأه، لكن "الفكرة"تخصصه وتحتكره وفي ذات الوقت تحرّمه، وتعتبـر كل محاولة لاختراقه وفض لبابه محاولة دنسة يجب ردعها وضربها بيد من حـديد، لكي لا تعاود الكرة مرة أخرى، ولتكون في ذات الوقت عبرة لكل من تسوّل له نفسه بالمحاولة الدنيئة. فالدفاع عن المكان الذي شـكلته "الفكرة"- دفاعاً مشـروعاً، لأنه ليس دفاعاً عن المكان بحد ذاته، إنما جوهر الدفاع يتمثل في الدفاع عن "الفكرة" التي شكلت المكان ووطدت أركانه. فدفاع الشعب الفلســطيني-على سبـيل المثال -عن المسجد الأقصى وعن القدس ليس من أجل المكان القائم عليه المسجد الأقصى، وإنما الدفاع سواء -بوعي أو بدون وعي - عن "الفكرة الاســلامية"، لأن إلغاء المســجد الأقـصى يعني إلغاء "الفكرة الاســـلامية" - صانعة المكان من القـــدس ونزع خصوصيتها وإقتراف مدنس بحق العالم الاسلامي الحارس "للفكرة الإسلامية"، أينما وجدت بغض النظر عن المكان الذي تتواجد فيه، سـواء في القـدس او بـغداد او الأندلس أو السعودية أو المغرب أو .. الخ.

"فالفكرة الإســلامية" على سبــيل المثال تواجدت في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبلاد الشام وبغداد ومصر والأندلس والهند .. الخ، وكانت قادرة على توحيد المكان، على عكس المكان الذي لا يستطيع توحيد "الفكرة"، لأن المكان قد يحـتوي أكثر من " فكرة "، ففي المكان الذي تواجدت فيه "الفكرة الشـــيوعية" تواجدت فيه "الفكرة الرأسمالية"، بينما "الفكرة" تحـتكر المكان وتحـرمه على "الفكرة" الأخرى، فالمسجد الأقصى محرّم الا على "الفكرة الاسلامية" والكنيسة محرمة إلا على "الفكرة

المسيحية" ونهر السند محرم أيضاً إلا على الفكرة الهندوسية وهكذا دواليك، وفي هذا نضيف–الفكرة تصنع المكان–بأن الفرد يستطيع ان يحمل "فكرته" أينما ذهب، فالمعتنق للفكرة الإسلامية يستيطع أن يصلي ويصوم ويؤدي مناسك الدين في الصين ومكة والهند وباريس .. الخ٠، لكنه لا يستيطع أن يحمل المكان أينما ذهب، فمعتنق "الفكرة المسيحية" ليس باستطاعته أن يحمل معه "كنيسة القيامة" أينما ذهب لتعذر ذلك ولتميّع الموقف.إذن الفكرة قادرة على خلق المكان وثقب حدوده، وفي ذات الوقت تبقى محافظة على كينونتها وتماسكها ووحدتها، وبناء على هذا يكون الانتماء "للفكرة" اكثر عمقاً، لأنه يعمق الولاء ويجعل الدفاع مشروعاً، كدفاع الفراعنة عن الفكرة الفرعونية المتألهةعندما لاحقوا سيدنا موسى عليه السلام للقضاء عليه. ودفاع الشعب الروسي عن "الفكرة الشيوعية عندما قامت الثورة البلشفية وراح ضحيتها خلائق كثيرة. وكذلك دفاع صلاح الدين الأيوبي عن الفكرة الإسلامية عندما قامت معركة حطين.باختصار، المكان عقيم و"الفكرة" قادرة على الانجاب، فالفكرة الفرعونية" أنجبت مكاناً سطّر عليه التاريخ الفرعوني، المتمخض ابتداء عن "الفكرة الفرعونية"، فما زلنا نزور أهرامات الفراعنة ليس احتراماً للمكان الذي تتواجد فيه، بل احتراماً "للفكرة الفرعونية" التي انجبت هذا الابداع، واتخذت من المكان دفتراً حجرياً سطرت عليه عبقريتها. بالاضافة الى هذا لكن فيما يتعلق "بالفكرة الاسلامية" فما زالت الشعوب الاسلامية تحترم الكعبة المشرفة وتزورها لأداء مناسك الحج، ليس لأنها موجودة هناك، بل لأن "الفكرة الاسلامية" متجسدة هناك وهناك يمكن ان نعلن الولاء لها، عن طريق التنسك والتعبّد، والانصراف عن الدنيا والاقبال على الآخرة، على اعتبار ان المكان وسيلة لتحقيق غاية، وليس غاية في حد ذاته، مثلما الصلاة وسيلة لتحقيق الغاية المتمثلة بمصالحه مع "الذات" اولاً و"الآخر" ثانياً، والمصالحة بالتالي مع المجتمع ككل.

### * التوحد مع الفكرة

اتفقنا على أن "الفكرة" قادرة على منح الهوية على المستوى المجتمعي، وما ينطبق على المجتمع ضرورة بل حتماً ينطبق على الفرد، ومن هذا المنطلق تكون "الفكرة" قادرة على منح الفرد هوية تصنع له شعاراً يميزه ويشكل ذاته، حتى تصبح "الفكرة" أنا وأنا "الفكرة"، فتغدو "الفكرة" مهيمنة على "الأنا" فكرياً وجسدياً ونفسياً. الى درجة اعلان "الأنا" لوجوده عن طريق "الفكرة". فالكوجيتو الديكارتي "أنا افكر إذن أنا موجود" بحاجة الى فبركة على الشكل التالي "انا اعتنق الفكرة إسلامية، شيوعية، بوذية... الخ) إذن أنا موجود" ليصبح أكثر جدوى. لأن الفرد يغدو اذا ما توحد توحداً كاملاً مع "الفكرة" عبداً لهذه "الفكرة"، يعبدها ويصلي لها. وهذا ما يمكن ان نلاحظه بشكل واضح من خلال المطارحات الفكرية التي تولدها الايدلوجيات على اختلافها، فهذا يريد ان ينتصر للفكرة الشيوعية وهذا للرأسمالية وهذا للبوذية، فكل قائم على فكرته، يدافع عنها نفسياً وفكرياً كما في المؤتمرات والمناظرات والحوارات والغزو الفكري وغيرها، ويمكن كذلك أن يدافع عنها جسدياً كما في الغزوات والحروب والثورات والانتفاضات وغير ذلك.

كما يمكن ان يدافع عن الفكرة بشكل فردي كما حصل مع الشهيد "سيد قطب" عندما أعلن تعامله مع الله عن طريق "الفكرة الاسلامية التي توحد معها فشكلته الفكرة، فصار هو "الفكرة" والفكرة" هو، وقد يتخذ الدفاع عن "الفكرة" – بعد التوحد معها – شكلاً مجتمعياً او بشرياً كما دافعت شعوب "الهنود الحمر" – حتى الموت – عن الفكرة الهندية، وكما يدافع – ايضاً – الشعب الفرنسي – على سبيل المثال لا الحصر – عن "الفكرة الفرنسية" من اختراقات العولمة او بالأحرى من "الفكرة الأمريكية" التي تسعى الى توطين نفسها على حساب "الفكرة" الأخرى.

وهكذا يكون "التوحد "مع "الفكرة" مثالاً بارزاً على التضحية والاستبسال ونكران الذات في سبيل الحفاظ على الفكرة ومنعاً لاندثارها وتميعها، حتى تبقى على الدوام محطاً للانظار، يتهافت عليها كل من يؤمن بمنطقيتها وشرعيتها، معلناً تذلله وعبوديته وولاءه لها ولشرعيتها.

***اشكالية الفكرة**

هناك مستويان من الوهن تتعرض لهما الفكرة، وهما اشكالية التنظير واشكالية التطبيق، أو بتعبير أكثر حصافة، تتعرض الفكرة الى إرهاصين، إرهاصاً نظرياً والآخر تطبيقياً، أما الإرهاص الأول فيتمثل بالقصور والضمور الذي تتعرض له "الفكرة" أثناء التنظير لها، فالمفكرون الذي ينظرون لفكرة ما - الوضعية على وجه الخصوص - ليسوا عفاريتاً جابوا الأرض (مشارقها ومغاربها) بعقولهم النافذة ليتمكنوا من معرفة طبائع البشر معرفة شاملة لا يأتيها الباطل لا من الداخل ولا من الخارج. فالفكرة الشيوعية ورغم كثرة المنظرين لها إلا انها ما زالت تعاني من اشكالية الشمول التجريدي، لتكون ناجحة بالتالي أثناء تجسيدها أو تطبيقها على الواقع. وهذا عائد الى طبيعة المنظرين، لأنهم من فئة البشر وليسوا من فئة العفاريت والخاصية الملازمة لبني البشر هي النقص وامتناع الكمال، حتى ولو بلغوا مبلغاً عظيماً في العلم والمعرفة, وهذا لا يقتصر فقط على المنظرين للفكرة الشيوعية، بل يشمل كل المنظرين "للفكرة الوضعية" وكل الذين سينظرون.هذا بالنسبة للإرهاص الأول، أما بالنسبة للإرهاص الثاني: إرهاص التطبيق او اشكالية التطبيق، فالفكرة تتعرض لانتهاك تعسفي من قبل مطبقيها، لأنها لا تطبق على الشاكلة الصحية. بتعبير آخر، يحدث تشرذماً بين التنظير للفكرة وتطبيق هذا التنظير، فالفكرة تكون طوباوية وهي في حالة التنظير، لكن هذه الطوباوية ما تلبث ان تفكك وتشظى أثناء التطبيق، فهذا "كارل ماركس" أحد المنظرين للفكرة الشيوعية يقول:" إن الدين هو أنين الكائن المضطهد، وقلب العالم عديم الرحمة، وحس الظروف القاسية، إنه افيون الشعوب". ولكن هل طبقت حقاً هذه التنظيرات؟ وهل لاقت آذاناً صاغية تصغي لها وتطبقها وتنشرها لتصبح عرفاً اجتماعياً وسمة ثقافية يلتزم بها كل من سيؤمن بالفكرة الشيوعية؟

* **الطرح الخاص**

الشـــــهادة من أجل " الفكرة" تخلق فضاءات من الاستبســــــال و الوفاء والاخلاص، وتمنح الشعب نفساً مقدساً، يخلده في الموسوعة التاريخية، ويبــرر له انزلاقاته وهفواته ولم من قبل التملق او تجنب الاستفزاز و النفور.

بينما الاستشهاد من أجل "المكان" يخلق مداراً ضيقاً يحشــر الأمة ويضيّق الخناق عليها، فيحصرها على هامش التاريخ، بل ينبذها ويقذف بـــها خارج النص بكل مكوناته، لأن الشـــهادة من اجل المكان تكون وليدة التزمت و التعصب للمكان، وفكرة التزمت و التعصب مرفوضة انسانياً وعالمياً – بــغض النظر عن النوايا – لذلك فالمستشهدون من أجل المكان يعيشوا في أضرحة ضيقـــة، لأنهم تعاملوا مع قوى الشر، التي دفعت بـــهم الى الهاوية التاريخية، بـــينما المستشـــهدون من أجل "الفكرة" تبني لهم أضرحة واسعة كالفضاء تحـــفها الملائكة والرياحـــيين والأيدي الطاهرة، لشجاعتهم واستبســـالهم في الدفاع عن "فكرتهم"، و"المهاتما غاندي"مثالاً بارزاً على ذلك.

هذا من جانب النظر كأخيار الى المستشهدين من أجل "الفكرة" وكأشرار الى المستشهدين من أجل "المكان"، أما من الجانب الآخر – الجانب الوحدوي – فيمكن أن تكون "الشـــهادة أثناء الدفاع عن المكان من أجل الفكرة " شـــــهادة لا تضاهيها شهادة، لأنها توحد بين الحس و الشعور، وتلفظ كل الانقسامات و الانشطارات خارج النص.

## المفكرون وقضية التأله

### * تقديم لبدايات التأله

نتيجة عجز العقل البشري عن تفكيك رموز "الماوراء"، وفي محاولة منه لإعلان ربوبيته على منطق الأشياء والتي تعتبر سابقة لا مثيل لها مقارنة بعالم الملائكة والشياطين – حاول العقل – ليس العقل ذاته "كمجرد" إنما العقل "كمحسوس" – على طول السلسلة الفكرية، ان يوجد لنفسه ثقباً يساعده في الإنتقال من المدرارات الحديدية للمرئي الى الفضاءات المثقوبة "للامرئي" او بتعبير آخر، ينقله او يساعده على الانتقال من "المتناهي" الى "اللامتناهي" ليثأر لضعفه الانطولوجي وليعلن أنه الأقدر على التعامل بمنطق العقلانية مع "الأنا" اي العقل ذاته – ومع "الآخر" الأشياء، وأنه في الوقت ذاته قادر على الاستبطان، وخلق المعجزات وتحديد الأولويات ورسم المخططات الايدلوجية التي تحدد مهام الإنسان في هذا الكون، وتوجد نموذجاً حياتياً لبني البشر.

هذا وعلى الرغم من إعلاننا إحراز العقل البشري للمرتبة الأولى في التأله هذا اذا تعاملنا بناء على الازليات والسرمديات وانعدام الزمان – الا ان الدلائل الواردة في متون الأيديولوجية – بمعناها المتعالي – الاسلامية تشير بأن الشيطان سبق العقل، –وهو مجسد– في قضية التأله، وظهر هذا جلياً في رفض الشيطان رفضاً باتاً لإرادة الله المتمثلة في السجود لأدم ﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر، وكان من الكافرين﴾، (البقرة:٣٤)

فكان هذا الرفض بمثابة تمرد شيطاني على إرادة الإله جل في علاه، وإعلان من الشيطان لأفضليته الربوبية، وانه قادر على استشعار هذه الأفضلية حتى بعيداً عن موجده.

وكان لهذا التأله الشيطاني تأثيره على الانسان الذي اســتجاب –متمثلاً في آدم – لاختراقات التأله الشيطانى فكان ما كان من خروج آدم من الجنة، ورحــلة بني البشر والصراع بين الخير والشر. فوجدت جماعات من بــنى البشــر، تعلن ربوبية الشيطان، وتعتبره قوة ماردة، خارقة للمألوف، وقادرة على صنع الشــر وإلحاقه بهم – ببني آدم– لذلك يجب ان تعلن العبــودية للقــوة الشــيطانية لتجنب سخطها وابعاد حبائلها عن أعناق بنى البشر. ولهذا وجد بعض العابــدين للقــوة الشيطانية عرفوا "بعبدة الشيطان" يرون في الشيطان "قوى الشر"، وفي الله قــوى الخير. ومن منطلق ان "قوى الخير" لا يمكن ان تضر بني البشر، لذلك يجب تجنب غضب قوى الشر عن طريق عبــادتها واعلان ربوبــيتها وطلب رضاها وتنفيذ اوامرها وتخصيصها بالعبادة من دون الواحد الأحد.

* **بدايات التأله**

العقل – بادئ ذي بدء– كمجرد او كمطلق هو محض تجريد لا اساس له في الواقع، خلا ان العقل الذي تعارفت عليه البشرية هو "المخ البشري" بما يحويه من افكار تعينه على تدبير شؤون حياته وتوجيهها نحو الأفضل. الا ان الذي حدث او بالاحرى الذي أحدثه المفكرون – من أجل إعلان الحاكمية للعقل – هو التعامل مع العقل بمعناه المطلق، والتحدث بالتالي عن المجردات من منطلق ربانية العقل، كالتحدث عن "ذات الله" والخوض في "كنه المجردات"، ومحاولة احاطتها بعناية الرب – العقل ههنا–، في محاولة للتدليل على أن العقل قادر على فض المتناهي والولوج بالتالي الى لباب "اللامتناهي" او بتعبير آخر، قادر على إحكام قبضته على "المجردات" علاوة على "المحسوسات".

لكن الحاصل او بالأحرى ما حصل وما قد يحصل، هو أن العقل ذاته بالمعنى المطلق – ليس هو المسؤول عن "فبركات" الحديث عن "الذات الإلهية" وعن المجردات والمطلقات. إنما ما حصل على وجه التحديد هو تأله العقل المجسّد في أدمغة المفكرين، الذين راحوا يخوضون معاركهم على جبهة المطلقات دون أن يكون لديهم العتاد الكافي أو بالأحرى العتاد السليم الصحيح للخروج بنتائج مشرفة تحقق تطوراً ايجابياً يساهم في دفع مسيرة الحياة البشرية الى الامام. فكان ما كان من تمجيد المفكرين والفلاسفة لعقولهم واعلان تمردها وتململها وخروجها من قمقم المتناهي وانتقالها بالتالي من مجرد مخلوقة الى خالقة قادرة على ترببيب ذاتها.

فالمذهب العقلي – بحسب راي برنتون – يتجه الى نحو إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون.

ولأجل تنصيب العقل إلهاً على بني البشر، قاد بعض الفلاسفة والمفكرين

مهاترات دامية مع أفكارهم لإثبات حق العقل في الربوبية من دون غيره، فتعددت الآلهة في الزمن المطحون التي نصبتها – على هذه الشاكلة – عقول المفكرين، الذين راحوا يحيكون الأساطير وينسجون الخرافات الفارهة الخارقة. إلا أن هذه الآلهة لم تكن آلهة بحد ذاتها. بقدر ما كانت أفكار المفكرين هي المتألهة، لكنها اسقطت ألوهيتها على خرافات وأساطير ادعّت قوتها وجبروتها وقدرتها "اللامتناهية"، والمطلوب بالتالي هو التمسك والتعبد لإثبات ربوبيتها وألوهيتها.ثم كانت المحاولة الفرعونية في التأله، عندما أعلن "فرعون" ألوهيته، وطلب من الناس عبادته، وتقديم فروض الطاعة والانحطاط أمام موكبه الجليل، وعرشه المهيب.

(فقال أنا ربكم الأعلى) (النازعات:٢٤)

لقد كانت تجربة "فرعون" في التأله أول محاولة على وجه المعمورة تنتشر على نطاق بشري واسع، وتذكر في ذات الوقت بنص قرآني، نظراً لأهمية الحادثة، وكسابقة من نوعها. أعلن فيها المخلوق طغيانه على الخالق، وأراد ان يتقمص ذاتية الخالق، او بتعبير اخر، أراد المخلوق ان يتعامل بمنطق معكوس ومفبرك، ليحكم البشرية والكون بعقله لا بقانون خالقه.

وقبل محاولة "فرعون" في التأله، كانت هناك محاولة "النمرود" أيام إبراهيم عليه السلام في تنصيب نفسه ندا في الألوهية لإله إبراهيم، وتمثل ذلك في إعلانه أي النمرود عن قدرته على الإحياء والإماتة، كما يفعل إله إبراهيم لكن قضيته لم تأخذ بعداً عميقاً كما أخذته قضية فرعون وذلك لسببين: أولهما يتمثل في حصر قضية التأله النمرودي، – وقت حدوثها – في نطاق ضيق يتمثل في إبراهيم عليه السلام وزوجته والنمرود وربما بعض أعوانه، على عكس التأله الفرعوني الذي أعلن على الملأ وعمم على الجميع.

وثانيهما يتمثل في البهتان النمرودي الذي تجلى عندما طلب منه ابراهيم - عليه اسلام - ان يجعل الشمس تشرق من جهة المغرب. (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) (البقرة:٢٥٨)

وبعد هذا أخذت قضية التأله تتعطق انعطافاً ملحوظاً يكاد يتقـــولب لها العقل البشري ويعلن تفشـــيها واختراقـــها لمعالمه، كتلك الافكار المتألهة - التي أنتجها عقل المفكر - وادعّت بقدرتها الخارقة على تخليد ذاتها، اذا ما خلدّها العقل "الآخر" - اي الأنا - وهذا ما حصل فعلاً بتأليه افكار "الآخر" - أي المفكر - فكان هناك التأليه للفكر الأفلاطوني والارســطو طاليســـي، او بالأحــرى تأليه الفكر اليوناني على وجه الجملة, وان ألوهيته قـــادرة على تفكيك الشــــيفرات الكونية والنفسية والحياتية، لأن العقل الذي ابدعها عقل مدبر أله نفســـه بنفســـه - نتيجة لقدراته الخارقة، وبدا العقل "الآخر" بـــتوكيد هذه الألوهية وإذعانه لها، وبـــدأت الاجيال - أعني المفكرة منها - خصوصاً المتأثرون بالفكر اليوناني - تتناقل هذه السمات المتألهة، الى درجة أعلن معها البـــعض، بـــأن الفكر اليوناني كان فكراً متعالياً خرق الزمان وثقب حدود المكان، فاستطاع ان يضع فلسفة كونية فلســـفت الحياة وسبرت مضجعها، مما شكل رسماً لمعالم الحياة البشـــرية، وتأطيراً لذاتها. وربما مقولة "امرسون" "أفلاطون هو الفلســـفة والفلســـفة أفلاطون" مثالاً ديناميكاً على الوهية الفكر اليوناني، وإعلاناً لأزليته وقدسيته.

ثم أخذت الفكرة - فكرة تأله العقل - بـــالتطور والازدهار الى ان جاء "دارون" - صاحب نظرية النشوء والإرتقـــاء - وصرّح علانية ربوبـــية افكاره

حيث قال "إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق"، فكان هذا تحــد واضح لقوة الحق جل جلاله، ورفضاً صارحاً لربوبيته، في سبيل رفع طبــيعته- القوة الخالقة عند "دارون" أو بالأحرى أفكاره الى مرتبة الرب القــادر المســيطر والمهيمن على نواميس الحياة والشاق لظلماتها والسائر بالبشــرية من الحــالات المنحدرة الى المراتب المتعالية، ولم يكن "دارون" هو لوحده المؤله لنفسه - سواء بوعي أو بدون وعي - بل كل الذين آمنوا بأفكاره - في غير مجالها العلمي هم في الحقيقــــة مؤلهون لأفكار "دارون" ومعلنون لربوبيــــيتها، وكان على رأس هذه المجموعة المؤمنة المفكر الخارق "كارل ماركس" حــــيث اخذ جوهر "النظرية الدارونية" وقال بألوهية المادة بدلاً من الطبيعة حــيث جعل من المادة خالقــه لكل شيء حتى الفكر - وهذه نقطة خلافه أو اختلافه مع هيجل - ففي هذا يقول " لا إله والكون مادة".. وبهذا يكون "ماركس" قــد أصبــح إلهاً بــفكرته الجديدة - ينظّر للبشرية ومستقبلها، بصفته عقلاً ثاقباً لــ "الأنا" و"الهو" "والهي" و"الهنا" و"الهناك".

وقادراً فى الوقت ذاته على تفكيك شيفرات الفكر البشـــري بـــصفته متمفصلاً عن مادته – والتنظير للبشرية بالتالي بعقيدة وضعية جوهرها "لا إله إلا ماركس" تعالى الله علواً كبيراً عن وثنيات العقـــل البشـــري إذا ما أعلن دغمائيته وتجسّد في وضع بربري، يشتاق ويحنّ على الدوام الى صبيـــانيته المطحـــونة التي كانت وما زالت تعاني من الشيزوفيرينيا (الانفصام).

هذا ويستمر "ماركس" برفضه لفكرة التأله الإلهي فيقول في كتابه (بـــؤس الفلسفة) إن العزة الإلهية والهدف الإلهي هي الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التاريخ، والواقع أن هذه الكلمة لا تشرح شيئاً".

لا بد اذن من "الجدلية المادية" (للإله ماركس) – بالمعنى الدغمائي للكلمة – لتفسير التاريخ ومعرفة أسراره وثقب متونه "ففي الطبـــيعة لا يلعب الكون الدور الحاســـم رغم انه موجود، وإنما تلعب هذا الدور الحـــركة والتطور والتغير، هذه الحـــــركة ملازمة داخلياً للمادة كخاصة جذرية لا تنفصل عنها، ولا داعي لوضع السؤال التالي. من أين حصلت المادة على هذه الحـــركة؟ لأنها موجودة منذ الأزل، ولهذا لا داعي للسؤال الذي يقـــول: من الذي أكســـب المادة الحـــركة، ما دامت لا تنفصل عنها، وتعتبر شكلاً من أشكال وجودها."*

ثم أخذت الفكرة الماركسية بالاستعار والتمرد الى درجة إعلان الملايين – وعلى رأسهم لينين مع بعض التحفظات – ربوبية "ثورة البـــروليتاريا" المتمفصلة عن الفكرة الماركسية وترجمة هذه الربوبية الى واقع جسد "بالثورة البلشفية" التي ما زالت عالقة في أذهان المتزمتين والمعقدين والممسكين بالمتعاليات من عرقوبـــها. ولم تلبث الماركسية او بالأحرى ألوهية ماركس ان اخترقت حصون عقل "الآخر"، ونشـــأت فلســـفات هي في جوهرها امتداد للفكر الماركســـي، كالبـــعث العربـــى الاشتراكي.

---

* قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط٨، ١٩٩٣، ص ٢٧٤

هذا ولم يكن "ماركس" لوحده هو المتأله، بل انجر الباطني "سيغموند فرويد" في متاهات التأله، وأعلن للعالم بلا خجل او تورع بقدرته "اللامتناهية" على ابتكار أفكار جديدة يمكن ان تكون رباً جديداً يمارس تعالياته الفرويدية على بني البشر، فقال فرويد من ضمن ما قال "إنه حدثت في البشرية الأولى حادثة هائلة ما تزال تؤثر في حياة البشرية الى هذه اللحظة، ذلك ان الأولاد شعروا بالرغبة الجنسية تجاه أمهم، فوجدوا أباهم حائلاً بينهم وبين الاستيلاء على الأم فقتلوه وكانت تلك او جريمة ترتكب في البشرية الأولى ثم احسوا بالندم على قتل أبيهم فقدسوا ذكراه فنشأت أول عبادة عرفتها البشرية وهي عبادة الأب، ثم وجدوا انهم لو تقاتلوا بينهم للاستيلاء على الأم فسيقتل بعضهم بعضاً، فاتفقوا على ألا يقربها أحد منهم، فنشأ اول تحريم في العلاقات الجنسية وهو تحريم الأم، ويضيف بأن كل الديانات التالية والحضارات قد نشأت من ذلك الحدث الخطير الذي لم يدع للبشرية منذ وقوعه فرصة للراحة."*

وهو بتصوره هذا يبدو متأثراً بأفكار "دارون" حيث يقول – أي فرويد – إن "دارون" يقول: إنه في عالم البقر تتجه الثيران الشابة الى الأم لمواقعتها، فتدور بينهم معركة رهيبة يفوز بها أقوى الثيران واصلبهم عوداً، فيستولي على الأم ويندحر الباقون.

لقد كان "فرويد" بتصوراته هذه معلناً وبدون تحفظات لعبقريته المتألهة، فهو بتصوراته هذه يكون قد رفض المنطق الإلهي – أعني منطق الحق جل جلاله – واراد ان يصطدم وجهاً لوجه بالقانون الإلهي أو ربما بقصد او بدون قصد – من خلال التسلح بقانونه الجديد. فأول جريمة قتل عرفها البشرية بحسب القانون الإلهي السليم هو مقتل "قابيل" لأخيه "هابيل".

---

* محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص ١١٠

(واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك) . المائدة: ٢٧) . أما حسب القانون الفرويدي، فقد كانت مقتل " الأب " من قبل أبنائه، ثم كان الاصطدام الثاني، فأول عبادة عرفتها البشرية حسبما اخبرنا القانون الإلهي– بمعطياته الراقية هي عبادة الله جل جلاله.

(وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) . (طه: ١٢٢)

أما قانون الرب "فرويد" فقد بين ان عبـــادة "الأب" هي أول عبـــادة عرفتها البشرية ومارست طقوسها. ثم كان الاصطدام الثالث المتعلق بتحـــريم الأم، فقـــد حرّمت الأمهات على الأبناء بناءً على قانون إلهي متعالي. تقديراً و عرفاناً وتقنيناً. (حرمت عليكم امهاتكم) (النساء: ٢٣)

أما قانون "فرويد" فقد حرم مواقعة الأم من قبل الأبناء حـــفاظاً على ســـلالة الأبناء، ومنعاً لانقراضها. * وعلاوة على ذلك ابتدعت الألوهية الفرويدية المقزمة نظرية جنسية بالغة الأهمية في رسم مستقبل البشـــرية، فأنت لســـت متحـــضراً او بتعبير أدق لست معلناً قداسة ربك "فرويد" إذا لم تطالب بتميّع العلاقة بين الجنسين، وفضّ قـــالب الدين والموروث الاجتماعي، الذي يحـــــفظها ويمنعها من الخروج ويحصرها ويحاصرها في قمقمها المسدود بسدادة هتلرية او ستالينية. أنت لست من دعاة الحضارة الكوكبية، إذا لم تتبنَ الشعار الماركســـي "الدين أفيون الشـــعوب" او شعار النظرية الجنسية لعالمنا المبـــجّل "ســـيغموند فرويد". إذا أمنت بـــهذا فأنت متحضرن – بالمعنى الإرهابـــي للكلمة – تبـــاركك الآلهة الداروينية والماركســـية والفرودية. واذا لم تؤمن فأنت – بـــدون مجادلة – اصولي وإرهابـــي ودكتاتوري. متمسك بالغيبيات في عصر العولمة والاقتصاد الحر وتدفق

* يمكن الاطلاع على كتاب " الانسان بين المادية والاسلام" وكذلك كتاب " مذاهب فكرية معاصرة" للمفكر محمد قطب

المعلومات، وعصر التحضير للانتقال الى حضارة كوكبية من الدرجة الأولى والثانية والثالثة وربما الرابعة.

*** تقديم لنهايات التأله**

لقـــد تعاملنا مع ما سبـــق بـــالمنطق المفكك لاشـــكالية الزمان والرافض لسيطرات وهيمنات التسلسل الزمني في التعامل مع حدث التأله، فقـــد عمدنا الى خلع "بطاقة الزمان" عن الحدث، لأننا لا نناقـــش او نعرض للتسلســـل التاريخي (الزماني) لقضية التأله. بقدر ما نعرض لاشكاليات القضية التي شـــكلت منعطفاً حديدياً. كبل افكار العقل البشري ، وساقها الى زنزانات الإلحـــاد المدلهمة. والتي ساعدت على الانغلاقات في مناطق الوعي، وسببت بـــالتالي حـــنيناً الى عصر المراهقة العقلية، حيث السوداوية والدغمائية والضبابية.

هذا أو بالأحرى بالإضافة الى هذا، لم تكن قضية ربانية العقل في مصلحته أبداً – أي العقل – وكذلك في مصلحة البشـــرية التي آمنت لفترة خلت وما زالت بهذه الربانية التي فرضت ســـلطانها – المســـتمد من تفردها – فهيمنت على فكر "الآخر" وجعلته ينقاد الى قواها الخارقة، خصوصاً بعد انجازاته الرهيبة في العلم وادواته، وتوغله في النفس البشرية وسبـــر معتقـــلاتها، والتعرف عن كثب على أطلال الدماغ البشـــري ونظم النظيرات التي تفســـر ذاتيته، علاوة على اختصار المسافات ونسف الجغرافيات والتوغل خارج النص الأرضي والوصول بـــالتالي الى نظرية الانفجار الأعظم حيث قواه – أي قوى الانفجار الأعظم – شكلت معالم الكون ورسمت خرائطاً لنواميســـه، فلم يعد بالمقـــدور تجاوزها او التمرد عليها ليبقى الكون في حالة من الاتزان والثبات وعدم الانفلات والتشتت.

وعلاوة على هذا الثورات العلمية المختلفة، كثورة الاتصالات والكوانتم وثورة هندسة الجينات، وغيرها من الثورات التي أحدثت تغييراً جذرياً على حياة بني البشر.

*** نهايات التأله**

لم يكن التقدم الذي أحرزه العقل البشري في مجال العلم والمعرفة، محجماً او مقزماً لقدراته او إمكاناته، او سبباً يدفعنا لنوصمه بالخزي والعار نتيجة للثورات المعرفية والعلمية التي أحرزها. فكانت سبباً في الحفاظ على كينونته وصوناً لها من القلق والاندثار، بل على العكس فهذا التقدم يزيد من احترام عقل "الأنا" لعقل "الآخر" وعقل "الآخر" لعقل "الأنا". فهذه الزفرات العلمية – المتمخضة عن التامل الفكري العقلاني – التي تحاول فك الاشكاليات الابستمولوجية – وقد حاولت ووصلت الى نتائج مذهلة خصوصاً في القرن الاخير وبدايات هذا القرن – تجعله يقف – أي العقل – حائراً ساجداً أمام الاشكالات الانطولوجية. وتجعله يعترف في الوقت ذاته اعترافاً كاملاً، بأن الاشكالات الانطولوجية ليست من اختصاصه، وأنه ككائن مجسد – على شكل دماغ – لا قدرة له على الإلمام "بكنه المجردات". لان المجرد "أصل" والمجسد "فرع" و"الفرع" متمفصل عن "الأصل"، وشيء متمفصل عن ذاته بإمكانه أن يفهم جزءاً من شيئه وليس كل شيئه، وبالتالي فهو عاجز كل العجز عن الإلمام بذاته، وبالضرورة يكون العكس ليس بالعكس.

ومن هنا يمكن للعقل البشري أن يفهم الجزء المحسوس منه – أي العقل – بعض هذا الجزء وليس كل الجزء، لكنه في المقابل عاجز عن الإلمام بذاته، أي العقل كمجرد او متعالي. وبناء على هذا، تكون المعارف والعلوم من اختصاص الدماغ البشري (الجانب المحسوس من العقل). لهذا لا تعتبر الثورات والزفرات العقلانية في العلوم والمعارف تمرداً على المجردات لأنها تنطوي على جانب

ابستمولوجي محســوس. وهو اعتراف واضح بمحسوســيتها وعجزها بالتالي عن مجاراة المتعاليات.

فكان اعتراف "آينشتاين"- صاحب النظرية النسبية- بــعجز العقــل عن ادراك المتعاليات او المجردات- بمعناها المطلق- إعترافاً بزحزحــة اشــكالية التمرد على "الذات الإلهية"، وإعترافاً منه- في الوقت ذاته- بعجزه"اللامحــدود" عن فهم كنه بعض الأشياء حيث قال:"إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها تلك التي تستشـــعرها النفس عند الوقـــوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والاظلام. إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته، حــيّ كميّت، إنه خفاء لا تستطيع أن نطلع فجره، ومع هذا ندرك أن وراءه شيئاً هو الحــكمة، أحــكم ما تكون، ونحــس أن وراءه شــيئاً من الجمال، اجمل ما يكون, وهي حــكمة، وهو جمال، لا تستطيع ان تدركها العقول. عقولنا القاصرة إلا في صور بــدائية أولية، وهذا الادراك للحكمة وهذا الإحساس بــالجمال في روعة،هو جوهر التعبــد عند الخلائق."*

وعلى الرغم من ان النظرية النسبية لــ "آينشتاين" كانت بمثابة ثورة على الفيزياء الكلاسيكية. احدثت نقــلة هائلة في علم الفيزياء خاصة والعلوم الأخرى عامة، ونقلته من أحضان التراث الى فضاءات مثقوبة، وعلى الرغم من هذا، الا أن إعتراف آينشتاين – سالف الذكر – يمثل إعترافاً من كل المشتغلين على جبهة العبقرية، بأنهم عاجزون كل العجز عن الإلمام بكثير من الأمور التي تنطوي على جانب انطولوجي عميق، او جانب تجريدي – بــالمعنى المتعالي للتجريد – لأن هذه المجردات لا قدرة للعقل على بلورتها وفك غموضها، وتجسيدها بالتالي الى

---

*محمود سامي أمين، التناقض في آراء المفكرين، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، العدد٤٧

أدلة مادية، تكون حجة قوية تجعلنا نعترف بألوهية العقل، وفي المقابل الإلحاد بعالم الشهادة الكبير المتعالي.

فلم تكن تلك الحقول الفكرية- التى تنطوي على جانب انطولوجي- التي عمل عليها المفكرون، ليثبتوا براعتهم "اللامتناهية" في إحقاق الحق وسبر غوره، إلا حقولاً أشبه ما تكون بالسراب، لأن الوسيلة المستخدمة- العقل ههنا- لفهم هذه الحقول- حقول المتعاليات - وسيلة"غير معقولة " تريد حمل المعقول(حصن المتعالي) على حملها- اي اللامعقول- لتجعل من "اللامعقول " معقولاً.

وهذا مرفوض ومنبوذ أيضاً، لأنه يمنح العقل البشري"بطاقة إله"، بصفته قادراً على تجسيد المتعاليات ليفهمها عقل "الآخر" وليسهل عليه بأن لا يفكر"فيما وراء الطبيعة" لأنه - أي عقول المفكرين جسّدها اي المجرادات على شكل محسوسات وماديات يسهل التعامل معها. فجسّد الروح بالنفَس، وجسّد- أيضاً- الكون"اللامتناهي" بنظرية الإنفجار الأعظم، وراح يخطط لمستقبل الكون، وفقاً لمعطيات علمية بحته. او بلغة أكثر دقة، راح يحمل المعطيات الانطولوجية على محمل ابستمولوجي، ليسهل على نفسه- اي العقل- عناء الانخراط في "الماوراء" المستنزف للعقل والطاحن لمعالمه.

وفي هذا اعتراف من العقل ذاته- بطريقة غير مباشرة- بأنه فعلاً ليس إلهاً، وليس قادراً على سبرغور المتعاليات وعاجزاً- في الوقت ذاته- عن فهم الجوهر، وتذهين كنهه.

ومن هذا الاعتراف نستدل او بالأحرى نصل الى المنطق العقلاني - بالمعنى المتحضر للجملة- القائل بضرورة بل بحتمية تنحيه العقل عن التأليه، لأن هناك قوة لا متناهية هي الأجدر بالتأليه لقدرتها المطلقة على التحكم بكل شيء. الشيء ذاته وكنه ذات الشي، حتى الكنه ذاته.

وتستمر مسيرة الاستدلال على محدودية العقل وتناهيه حتى لو أتى شخص كـ"جوليان هكسلي" وقال: "إن الانسان قد خضع لله بسبب عجزه وجهله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة، فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله."

لأن مقولته تعاني من نظرة بدائية صبيانية الى منطق الأشياء لمحدوديتها وتشتتها ووقوعها في "فخ المصطلح". فما أدرانا ان مفاهيمنا عن البيئة هي الجسم السليم لعقل المصطلح السليم، اذا تعاملنا مع مصطلح البيئة من منظور إلهي متعالي.

*** الالحاد بربوبية العقل**

ان العقل من حيث هو ليس هو ، لأن صبـــغاته الانطولوجيه مجرد تهيؤات اختزلها المفكرون"بالدماغ البشري". لذلك فاعلان انكار وجودية العقل -كمجرد- او اعلان وجوديته ليســت من اختصاصنا، لأننا لا نملك عصاً سحــرية او مارداً نخرجه من قمقمه، يساعدنا في الانتقال من حقل العموميات الى حقل الاختصاص الدقــيق الذي يمكننا من فهم العقــل كمعطى راق يتعالىفوق مفاهيمنا وتصوراتنا المحاصرة في جماجمنا.

اذن الانكار او الالحاد ليس للعقل كمجرد، بل للدماغ البشري او بالاحرى لأفكار المفكرين المتمفصلة عن ادمغتهم. بــــلغة اخرى، الانكار ليس لوجودية الدماغ، بل ان الامر متعلق بنبذ الفكرة المتألهة والسخرية منها، لأنها واقعة تحت وطأة الجمجمة المفلذنة.

ومن هذا ينكشف لنا، بان الحصار الجمجمي للفكر يكشـــف لنا عن عجز العقل- كمجسد- عن تحرير ذاته من معاقل حصاره، والنظر له بالتالي كمتقوقع متناهي ومحـــدود، غير قـــادر على مجاراة المتعاليات التي لا تصله افكاره لانها محاصرة. وحتى وان حاول الوصول اليها العقل- بالمعنى المتعارف عليه- فانه يصاب بحالة من التشرذم الوجودي، لأن كل مفكر يتحدث على هواه، ويفسر كما يحلو له. فهذا يقول"كذا" وذاك يطعن في"كذا" وينشئ كذا مغايرة، هي بـــالتالي لا تعجب "الأنا" فانشئ "كذا" جديدة، و "الاخر" هو بالتالي لا تعجبـــه "الكذا" الجديدة، فيعمل على انشاء "كذا" جديدة اكثر تمرداً وعنفواناً وشبابـــاً، وهكذا دواليك تبقـــى العملية كمن يطحن في الماء أو يطارد عفريتاً.

اذن الفكرة -خصوصاً التي تعمل على الجبـــــــهة الانطولوجية- فكرة

ضعيفة، وفي نفس الوقت ناقـــصة، أعلن نقـــصها الفكر ذاته: فكر "الأنا" وفكر "الآخر". وشيء ضعيف وناقص لا يصلح ان يكون إلهاً يمارس ربوبـــيته، لتعلن له فروض الطاعة ومراسم التقديس.

لا بد إذن من إله واحد أحد كامل قوي كاشف ثاقـــب، مهيمن يعلم خافيات الأعين، يتجلى فوق الزمان والمكان، إله ســـرمدي أزلي، عليم خبـــــير، يتفرد بألوهيته وربوبيته لا يجاريه أحد لا في السماوات ولا في الارض تتحشرج لرهبته وجلالته الارواح، وتصعق الاجساد وتتصهر الجبال، ويتقوقع العقل ويتكوم داخل جمجمته. إله تستشعر عظمته استشعار، تهتز لها النفس وتحار لها الألباب.

لا بد اذن – مرة اخرى– من إله نعلن له عبوديتنا وتذللنا، لأنه يعلمنا ونحن لا نعلمه، وهو يجسدنا ونحن نستشعر عظمته عن طريق مخلوقاته، لا بـــد لنا من إله صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحـــــد، ليس كمثله شـــــيء. نتذلل له صاغرين مكبرين معلنين عجزنا وضعفنا ونقصنا وتقوقعنا، وموحدين له، يتجلى ونحن نتصغر، يتعالى ونحن نتذلل.

## عودة الى ما قبل نهايات المقدمة

لم يكن بد من العودة الى المقـــدمة ليس لرأب صدع او تجســـير هوة، او لنعالج- علاجاً علاجياً- مرضاأصاب جســـم المقـــدمة، ولم تكن عودتنا أيضا، كعودة"المنفي" الذي فتحت له أبواب الوطن، بعد التدخل السياسي.

بل جاءت العودة من اجل التذكير مما لا بـــد منه، والمتمثل في أننا ما زلنا نرضخ لقوى"الآني" الذي فرض منطقة الجسور على تأملاتنا، لهذا جاءت- أعني التأملات الآنية- بالقطع تمهيدا لتأملاتنا التالية التي لم يكتب لها بـــعد الخروج من رحم المؤلف، لأنها ما زالت مرتبطة بحبل سري توجه خطاه(القوة السرمدية)التي فرضت منطقها السليم على عقل المؤلف.

بتعبير آخر، لم تكن عودتنا لشـــيء خلا لفت الانتبـــاه بـــأننا بـــعد لم نلج الى"التالي" ولم نتوغل في جغرافياته، إنما كان ما اشـــارت إليه المقـــدمة كتقـــديم للاحـــق أو بالأحـــرى وكأن ما كتب لغاية الآن يعتبـــر بمثابـــة مقـــدمة"للوضع التالي"خضعت-خشية من الانفلات- لقانون صارم لكنه آمن، وفّر عليها كثير من الزندفات الهدامة التي كان من الممكن ان تنحرف عن جادة الطريق المستقيم. لهذا تجردنا في مرحـــلة الطفولة من جاهليتنا ووثنيتنا وتسربـــلنا بقانون(القـــوة السرمدية)التي ستكون مستقبـــلا-الغطاء المناســـب-الذي تتماهى فيه عبـــاءته تأملاتنا التالية.

بعد هذا الإيضاح، لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشـــكر الى الأخ "عصام" الذي كان – على الدوام – يمنحني تأشيرة دخول الى ذاكرته.



## المحتوى

رقم الصفحة